طبيب القلوب

(روايـــة إنسانيـــة)

الكاتبـــة

رويـــدة الدعمـــي

(1)

أمير الأحلام..

كانت الأفكار تجول بخاطرها كما تجول الخراف في المراعي.. تساءلت فدوى بعد أن تعبت من ملاحقة أفكارها :

متى يا خرافي يأتي الراعي لينادي عليك بمزماره فتلتفي حوله وتذهبي إلى حيث حضيرتك.. فتنامي بعد يوم شاق وطويل؟

ثم تخيلت ذلك الراعي وهو يأتي من بعيد ولكن.. لماذا يرتدي ملابس الأمراء..؟!

ضمت رأسها بين طيات الوسادة وهي تقول : لا أعرف ماذا يريد مني هذا الأمير؟

لماذا كلما تخيلت شخصاً معيناً جاءني هو لا غيره!؟

ثم تذكرت ليلة أمس عندما رأت في المنام بأن الباب يطرق ليأتي ساعي البريد يحمل لها رسالة، كان ساعي البريد هو نفسه الراعي وهو نفسه الأمير!!

استسلمت للنوم فإن غداً سيكون موعد المحكمة التي ستصدر الحكم على والدها.

في الصباح رافقتها مُربيتها (سُمية) إلى المحكمة فهي في الحقيقة أكثر من كونها مُربية.. إنها أمها الثانية التي احتضنتها بكل عطف وحنان بعد وفاة والدتها منذ عشر سنوات.

جاء القاضي وبدأت المحاكمة.. كان والدها يقف خلف القضبان وهو يستمع للمحامي الذي لم يدّخر جهداً في الدفاع عن موَكلهِ.

لم تفلح كل الأدلة والحجج التي قدمها المحامي فلقد كانت هناك أدلة أقوى وأتم تدين المتهم، لذلك حكمت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة!!

وقعت فدوى أرضاً .. صارت تبكي وتخدش وجهها بأظافرها وهي تصرخ : مدى الحياة؟! كيف سأعيش بلا أم ولا أب؟ كيف سأواجه الحياة لوحدي يا أبي كيف..كيف؟!!

نظر إليها والدها بعينين دامعتين والسلاسل تحيط بمعصميه، ثم خفض رأسه واتجه محنيّ الظهر إلى سجنه المؤبد .

تسلمت فدوى بلاغاً بإخلاء المنزل لأنه أصبح محجوزاً للدولة ، لملمت أغراضها وحاجياتها وساعدتها مربيتها الخالة سمية على ذلك..

قالت لها فدوى بعد نهار شاق :

- سأخلد الآن للنوم فغداً يجب أن أذهب إلى الشقة التي استأجرتها لتوقيع العقد ودفع إيجار الشهر الأول ثم إستلام المفتاح .

قبّلتها سمية في جبهتها وهي تردد : تصبحين على خير حبيبتي.

انتقلت فدوى إلى تلك الشقة الصغيرة وكان الأمر في غاية الصعوبة بالنسبة لها.. فلقد فتحت عينيها الجميلتين على قصر كبير وحياة مترفة.

دخلت غرفتها الجديدة والبسيطة، استلقت على سريرها وهي تفكر بما ستؤول اليه حياتها الجديدة.

نظرت إلى صندوق مجوهراتها.. هل ستكفيها هذه المجوهرات لسد مصاريف العيش طوال هذا السنين؟

لقد تبرأ منها جميع أقاربها بعد أن قام والدها بقتل ابن عمه.. حتى أخوالها تخلوا عنها رغم أنها كل ما بقي لهم من ذكرى أختهم الراحلة..!

في خضم هذه الأفكار السوداء رن هاتفها النقال ..انه ليس والدها بالتأكيد ! فلقد سحبوا منه هاتفه منذ أول يوم أدخل فيه السجن.. نظرت إلى شاشة الهاتف فإذا به اسم صديقتها بسمة، فتحت الخط وجاءها صوت بسمة مفعم بالفرح والسرور : فدوى حبيبتي هنيئا لك.. لقد ظهرت النتائج وتم قبولك في كلية الطب .

صمتت فدوى ولم تعرف بماذا تجيبها، فلقد أنستها همومها وأحزانها بأنها تنتظر نتيجة القبول للجامعة!

قالت وهي تُخرج الكلمات من فمها بصعوبة : أنت تعلمين أن كلية الطب ليست رغبتي.. هي رغبة الوالد!

أجابت بسمة وما زالت الفرحة بادية على صوتها : ولكن هل هناك عاقل يخبروه بأنه تم قبوله في كلية الطب فيقول بأنها ليست رغبته؟! اتركي ما فات وافتحي صفحة جديدة.. إن السعادة تنتظرك حبيبتي..

قاطعتها فدوى : وأنتِ.. ما هو قبولكِ؟

أجابت بسمة بسرعة البرق : كلية طب الأسنان.. الحمد لله فهذا ما كنت أتمناه.

في أول يوم دراسي وصلت فدوى متأخرة عن المحاضرة بعشر دقائق.. كان الأستاذ المحاضر فض وغليظ القلب ، فما أن وقعت عيناه عليها وهي تطلب الإذن بالدخول عند باب القاعة حتى هاجمها بالقول : ما زلنا في يومنا الأول يا آنسة! ثم لا تنسي إنك في كلية الطب.. والطب يعني التزام.. التزمي بالوقت وإلا سيكون لي كلام آخر معكِ!

اختنقت فدوى بعبرتها ولم تلقَ ما تجيبه به غير الدموع، هل حزنها قليل حتى يأتي هذا الأستاذ ليزيدها حزناً فوق حزنها؟

أشار إليها بالجلوس على أحد المقاعد الفارغة، اتجهت وهي خافضة الرأس من شدة ما أصابها من الخجل والحياء.. فلقد أصبح كل من في القاعة ينظر إليها!

اختارت مقعداً بجانب الشباك فلقد أحست بأنها تحتاج إلى هواء أكثر لتستنشقه بعد كل هذه الإهانة..وقد لاحظت أن الشاب الذي جلست بجانبهِ كان مطأطأ الرأس وقد بانت عليه علامات الخجل وكأنه هو الذي استقبل الإهانة من الأستاذ وليست هي!!

(2)

السعادة المفاجئة..

طوال فترة المحاضرة التي استغرقت ساعتين كاملتين لم تتوقف فدوى عن البكاء بصمت، لم يشعر بها أحد غير (شِهاب) ذلك الطالب الذي كان يجلس بجانبها.. وكلما كانت تنزل دمعة كانت تسارع إلى مسحها لئلا يرى الأستاذ دموعها فيعود إلى تأنيبها وإهانتها..

انتهت المحاضرة وخرج الجميع وبقت هي تنظر إلى الشباك منتظرة خروج آخر طالب.. لكنه لم يخرج!

لكن لماذا لم يتحرك من مكانه؟

هكذا تساءلت مع نفسها، وقبل أن تترك مقعدها جاءها صوته شجياً متزناً :

لا أعرف بالضبط ما هي ظروفك.. ولماذا كل هذا البكاء ولمدة ساعتين كاملتين!!

إلا إنني أخبرك بأن لدي ثلاث أخوات وستكونين منذ الآن الأخت الرابعة.. إن سمحت بذلك طبعا!

أدارت فدوى برأسها تجاهه فإذا بها تراه خافضاً رأسه وهو يتكلم بكل أدب واحترام.. قالت متعجبة من طريقة كلامه : جزاك الله خيراً أخي.. هذا من كرم أخلاقك.

قام شهاب من مكانه وتركها تموج بين أفكارها.. لطالما كانت حزينة وكئيبة، ولكنها الآن وبفضل كلماته الصادقة صارت تشعر بأن الدنيا ما زالت بخير وبأن الحياة ما زالت تحمل بين ثناياها شيئا من الإحسان والجميل.

في المحاضرة الثانية كانت حالة فدوى تختلف تماماً عن المحاضرة الأولى.. والشيء الوحيد الذي كان يجعل المحاضرتين متشابهتين انها في كلتيهما لم تفهم شيئا!!

ففي المحاضرة الأولى كانت مشاعر الحزن هي المسيطرة وفي الثانية كانت مشاعر السعادة (التي لا تعلم سببها) هي المسيطرة عليها مما جعلها لا تفهم من كلا الأستاذين أي كلمة!!

في البيت استمرت مشاعر السعادة تلك حتى أن سُمية سألتها بتعجب : هل كلية الطب جميلة إلى هذه الدرجة؟ أولم تقولي انكِ غير راغبة في الذهاب إليها؟!

بدأت فدوى بسرد كل شيء لمربيتها التي كانت تستمع إليها بكل اهتمام..

قالت سمية وقد انتقلت إليها عدوى السعادة :

- يحميه الله ويحفظه.. انه شهم فعلاً! سيكون هذا الشاب أروع طبيب في المستقبل فهو يداوي الأرواح قبل الأجساد.

تفاجأت فدوى من هذا الوصف.. قالت وقد تورد لون وجهها :

- إن وصفكِ لهُ بهذه الطريقة يا خالة سيجعلني أفكر به أكثر!

ضحكت سمية وهي تربت على كتف فدوى وتقول :

لطالما تمنيت لقلبكِ السعادة يا حبيبتي.

أما شهاب فلقد جلس بين أخواته الثلاثة وهو يسرد لهن ما حصل في يومه الجامعي الأول.. وبعد أن أكمل حديثه قالت ختام وهي أجرأهن حديثا رغم أنها أصغرهن عمراً :

- احم احم.. منذ اليوم الأول يا شهاب.. ما هكذا الظن بك يا أخي!

ضربتها مرام- وهي الوسطى - على كتفها بلطف وهي تقول : احترمي أخاك الأكبر يا فتاة..!

ثم التفتت إلى أخيها لتقول له : صحيح يا شهاب لو كنت انتظرت يوماً أو يومين يا أخي!!

كان شهاب يوزع ابتسامته بينهن فنظر إلى أكبرهن وكانت تصغره بعامين فقط : وأنتِ يا نور عيني.. هل رأيكِ مثل رأيهن..؟

قالت سهام : لا يا أخي أنا لا أسيء الظن بك أبداً .. حتماً انك عندما قلت لها بأنها ستكون أختك الرابعة كنت تقصد ما تقوله ولم تقصد شيئا آخر.. لا عليك بما تفوهتا به .

ادارت بوجهها نحوهما وهي ترمقهما بنظرات حادة وتقول :

توقفا عن الثرثرة.. إن بعض الظن إثم.. هذا ما علمنا إياه ديننا الحنيف.

في الصباح وبينما كانت فدوى مع بقية الطلاب ينتظرون قدوم الأستاذ استغلت الفرصة لتشكر شهاب على أخلاقه العالية ولطفه في التعامل معها، قالت بارتباك :

- لا أعرف كيف أشكرك على لطفك معي يوم أمس.. لقد كانت حالتي النفسية متعبة جدا.

قال شهاب وهو يعبث بالأوراق التي بيده : لا شكر على واجب أخيتي..

قاطعته فدوى قائلة : أنا البنت الوحيدة وليس لي أخ أو أخت.. كما أنه ليس لي أب ولا أم.

رفع شهاب رأسه وقد نظر إليها بتعجب وهو يقول : ولكن مع من تعيشين؟!

قالت وقد لاحت دمعة في عينها : مع مُربيتي .. إنها انسانة طيبة لم تتركني منذ وفاة والدتي.

قال شهاب متأثراً : رحم الله والدتكِ.. وهل أباكِ على قيد الحياة؟

تلعثمت فدوى قليلاً فما كانت تتوقع أن يصل الحديث إلى هذه النقطة الحساسة.. !!

قالت بعد تردد : أبي.. أبي.. إنه مُسافِر !

ثم تنفست الصعداء بعد أن وجدت لنفسها مخرجاً مما كانت فيه من مأزق.

في المنزل أنّبتها سُمية كثيراً على ما قامت به من سلوك خاطئ

قائلة لها : سيأتي يوم ويعرف ذلك الشاب الحقيقة.. حينها ماذا سيكون موقفك؟

قالت وهي تحاول إخفاء ارتباكها : وماذا يهمني إن عرف..!

اصلاً أنا سأبتعد عنه قدر الإمكان.. فما أنا بالنهاية إلا ابنة رجل مجرم .

وقبل أن تفضحها دموعها أسرعت إلى الغرفة وأغلقت الباب خلفها ثم رمت بنفسها على السرير باكية ناحبة حتى استسلمت للنوم.

لم تنفذ فدوى ما أخبرت به مُربيتها من أنها ستبتعد عن هذا الشاب قدر الإمكان بل فعلت العكس من ذلك تماما!!

ففي ظهيرة اليوم التالي وبينما كانت تتمشى مع بقية زميلاتها في حديقة الجامعة لمحت شهاب يدخل إلى المصلى وبحجة الصلاة استأذنت من زميلاتها لتتجه إلى حيث اتجه .

(3)

لن أبق في كلية الطب!!

وقفت عند باب المصلى ورأته مستغرقاً في الصلاة بكل خشوع، ضلت واقفة تراقبهُ حتى أكمل صلاته.. وقبل أن يلتفت شهاب إلى وجودها أسرعت بالعودة إلى حيث زميلاتها.

وفي المساء وبينما كانت تحتسي كوباً من الشاي وهي تتسامر مع سُمية قالت فدوى بشيء من الحزن : لماذا لم ترشديني إلى الصلاة عندما كنت طفلة يا خالة؟ .. لو انكِ علمتِني إياها منذ الصغر لما استصعبت القيام بها الآن..!!

أكملت وفي صدرها غصة : عندما شاهدتُ الطمأنينة والسكينة التي بانت على شهاب اليوم وهو يُصلي تساءلت مع نفسي : لماذا أحرم نفسي من هذا الموقف الرائع بين يدي الله؟!

تفاجأت سمية من هذا المنطق الجديد لفدوى، قالت والفرحة تكاد تطير بها : ما أسعدني بك يا زهرتي الجميلة.. صدقيني كانت هذه أمنيتي لكن..

لكن ماذا يا خالتي؟ هكذا تساءلت فدوى بِحُرقة.

أجابت سُمية بصعوبة : إن أباكِ سامحهُ الله كان يهددني دائماً أن لا أعلمكِ شيئاً من ديننا الحنيف.

أكملت والدموع تغمر مقلتيها : لقد هدَّدني إن تكلمتُ معكِ عن الدين وتعاليم الله تعالى فإنهُ سيطردني.

تساءلت فدوى بدهشة : ألهذهِ الدرجة كان أبي حاقداً على الدين؟

أجابتها سُمية بألم : نعم للأسف الشديد.. لقد كانت أكثر خلافاته مع والدتكِ رحمها الله بهذا الخصوص.. كان يحاول اجبارها على خلع الحجاب ووضع المكياج وترك الصلاة والصيام ويحاول إجبارها على الاستماع للغناء لكنها كانت ترفض كل هذا بشدة.

قالت فدوى بألم : نعم اتذكر بعض من تلك المواقف.. إنها مازالت عالقة بمُخيلتي رغم أنني كنت ما أزال صغيرة.

قالت سُمية وهي تمسك بيد فدوى : هل تعرفين لماذا لم يجبركِ على خلع الحجاب عندما قررتي ارتداءه؟

تسائلت فدوى بذهول : لماذا؟

أجابت سمية وهي تمسح على يد صغيرتها : لأن هذه كانت وصية والدتكِ، أن لا يمنعكِ من ارتداء الحجاب وأداء الصلاة والصيام كما كان يحاول معها .

لقد التزم بوصيتها ظاهراً لكنه في الوقت نفسه صار يهددني بالطرد من المنزل أن حاولتُ أن أقربكِ للدين.. أتذكر انه في آخر مرة هددني فيها قال لي عبارة جرحتني كثيرا..

- ماذا قال يا خالة؟ أقسم عليك بروح امي ان تخبريني.

- لقد قال لي انه يتمنى طردي في كل لحظة لولا أن المرحومة كانت أوصته بإبقائي للاعتناء بك.

- ولكن لماذا يتمنى طردكِ ؟

- لأنه يكره (المتدينين) على حد تعبيره.

قالت فدوى وكأنها تنظر إلى الأفق البعيد :

- سبحان الله.. لقد عرفت الآن الحكمة مما جرى له، لقد أدخله الله إلى السجن ليبعدني عنه.. ويقربني إلى ديني.

اتجهت فدوى لتتوضأ وهي تقول : تعالي يا خالتي وعلميني كيف اتوضأ وأصلي.. سأكون كما أرادت لي والدتي أن أكون .

****

مضت الأيام وفدوى تحاول أن ترضى بنصيبها في هذه الكلية.. كانت تحاول بشتى الطرق أن تقتنع بأنها ستكون طبيبة جيدة في المستقبل..

إلى أن جاء اليوم الذي خابت فيه آمالها من جديد، وذلك عندما إصيبت مُربيتها بوعكة صحية نقلتها على إثرها إلى المشفى .. ولما كانت سُمية مصابة بمرض السكري وكذلك ضغط الدم المرتفع فلقد أضرَّت تلك الوعكة على صحتها كثيراً وارتبكت فدوى أيّما ارتباك، قالت وهي تمسك بيد سُمية وتبكي بألم : ارجوكِ يا خالة كوني قوية.. فليس لي أحد في هذه الدنيا سواك!

جاءت الطبيبة ونظرت إلى حال سُمية، وقبل أن تقوم بأي فحص أشارت إلى الممرضة بالقول : اعطِها كمية من الأوكسجين انها تعاني من ضيق في التنفس.

تركتها لتنتقل إلى مريضة أخرى، نادت عليها فدوى لتخبرها بأن سُمية تعاني ومنذ ابد طويل من الضغط والسكري لكن الطبيبة نظرت لفدوى من وراء النظارة الطبية شزراً ثم تركتها وابتعدت.

قالت للممرضة بعد أن صدمها موقف الطبيبة : أن خالتي تعاني من الضغط والسكري رجاءاً اعملوا اي شيء لإنقاذها..

قالت الممرضة وهي تضع جهاز الأوكسجين على وجه سميه : اسمعي يا هذه.. لا تعلمينا كيف نقوم بواجبنا.

جلست فدوى على المقعد القريب من سرير خالتها، سالت دموعها على خديها ثم أمسكت بيد سمية وهي تقول : هل عرفتي الآن لماذا لا أحب كلية الطب؟ هل عرفتي يا خالتي لماذا لا أريد أن أكون طبيبة.. حتى هذه الممرضة التي يصفوها بأنها ملاك الرحمة.. انظري إلى تصرفاتها؟!

في صباح اليوم التالي ذهبت فدوى إلى عمادة الكلية وقدمت طلباً ليتم تحويلها إلى كلية الهندسة، دخلت قاعة المحاضرات وكان الأستاذ المحاضر هو نفسه (الأستاذ شادي) الذي أهانها أمام الطلبة في يومها الدراسي الأول..

طرقت الباب ولما رآها قال بأعلى صوته : متى تتعلمين الالتزام بالوقت يا آنسة ؟هذه المرة الثانية وعلى التوالي ..!

نظرت إليه فدوى وهي تقول بكل أدب : كنت عند عمادة الكلية يا أستاذ، قدمتُ طلب نقلي إلى كلية الهندسة.. سوف لن تراني مجدداً.. أعدك بذلك.

تفاجأ الطلاب والطالبات من كلامها، أما الأستاذ فلم تهتز منه شعرة، قال وهو يشير إليها بالدخول :

ـ هذا أفضل شيء تفعلينه .. فالطبيب يجب أن يكون ملتزماً بمواعيده .

وما أن جلست على المقعد حتى استأذنت للكلام :

ـ ولكن يا دكتور هل مهنة الطب برأيك هي التزام بالمواعيد فقط؟ أليست هي مهنة الأخلاق والشرف؟ أليست هي أكثر مهنة إنسانية على الإطلاق؟!

أكملت وقد تطافرت دموعها من عينيها كاللؤلؤ :

لماذا أصبحت أرى الطبيب لا يهمه غير جمع الأموال من المرضى.. ثم لماذا نفس الطبيب في عيادته الخاصة تكون أخلاقه جميلة بينما في المشفى الحكومي نراه شخصا آخر؟

لم ينبس الدكتور ببنت شفة، لكن جرأة فدوى ودموعها وسط تلك العينين الجميلتين حركت في قلبه مشاعر الرغبة في التقرب منها!

في حديقة الجامعة التفت الطالبات حول فدوى في محاولة منهن لمعرفة السبب من قرارها المفاجىء في تغيير الكلية..

وهنا تقدم شهاب وألقى التحية، ثم طلب من فدوى أن تسمح له بالتحدث معها على انفراد، استأذنت من زميلاتها واتجهت نحوه بكل أدب..

ـ تفضل اخ شهاب.. هل من خدمة؟!

(4)

الحياة مدرسة.. يا فدوى!!

استأذنت من زميلاتها واتجهت نحوه بكل أدب..

- تفضل اخ شهاب.. هل من خدمة؟

- لا أعرف ماذا أقول.. لكن هل أنتِ جادة بقرارِكِ هذا؟

- نعم يا شهاب.. لقد قدمت الطلب وأنتظر الآن الموافقة، علما اني ذهبت في البدء إلى كلية الهندسة وحصلت على الموافقة بقبولي فيها ولن تبقَ إلا موافقة عميد كلية الطب.

- ولكن هل لي أن أعرف السبب؟

- القصة طويلة.. ولا أريد أن أصدع رأسك بها.

جلس على احد المقاعد المنتشرة في الحديقة وأشار إليها للجلوس وهو يقول : تحدثي ارجوكِ.. لعلي أستطيع مساعدتكِ.

قالت فدوى وهي تحاول أن تكون متماسكة : لقد كرهت هذه المهنة منذ وفاة والدتي عندما كان الأطباء لا يعاملونها كما يجب.. كانت تتألم أمامهم وتتلوى وفي بعض الأحيان تصرخ بأعلى صوتها من شدة الوجع لكنهم ينظرون إليها وكأن شيئاً لم يكن.. كنت بجانب مُربيتي حينما قامت بسؤال الدكتور عن حالة والدتي فسألها : وما هي قرابتك منها؟

قالت له في حينها انها أمها وأشارت إلي بالقول : وهذه ابنتها . نظر إليَّ الطبيب وكنتُ غارقة بدموعي ثم قال :

المرض منتشر في كل جسمها.. وليس هناك أي أمل في شفاءها!

صدمتُ من فوري ووقعت أرضاً مغشياً عليّ ولم أفق إلا بعد يومين من شدة الصدمة.

لم تستطع فدوى إكمال حديثها.. لقد خنقتها العبرة، اخرج شهاب منديلاً من جيبهِ وهو يقول : إمسحي دموعكِ ارجوكِ.

أخذت فدوى المنديل بيدين مرتجفتين وهي تقول :

لقد كان قاسي القلب جدا بل وكأنه بلا قلب اصلا.. حتى الممرضات في حينها لم يقمن بالواجب رغم أن المجتمع يطلق عليهن لقب (ملائكة الرحمة)!!

كرهت مهنة الطب والتمريض، وقررت أن أمتهن اي مهنة إلا هاتين المهنتين!

لكن ابي أصر على أن أتقدم لكلية الطب بعد أن رأى معدلي عال جدا.. لم أشأ مخالفته ، خاصة أنه من الذين تصعب مخالفتهم ويصعب إقناعهم برأي غير رأيهم.

دخلت هذه الكلية رغماً عني وتذكر كيف قضيت المحاضرة الأولى وسط دموعي وحزني الشديد.

قال شهاب متسائلا : ولكنني ظننت انكِ بكيتِ بسبب إهانة الأستاذ لك ببعض الكلمات الجارحة

ـ نعم هذا كان أحد أسباب دموعي لكن السبب الحقيقي أنني كنت غير راغبة بالدخول لهذه الكلية على الإطلاق!

ـ ولكنكِ بعد تلك المحاضرة كنتِ طبيعية جداً ، حتى اني أجد علاقتكِ بباقي الزميلات علاقة جميلة ومتينة رغم أننا ما زلنا في الشهر الأول!

ـ نعم صحيح.. ولكن الموقف الذي مررتُ به يوم أمس في المشفى حينما أخذتُ مُربيتي الى هناك جعلني أعزم على ترك كلية الطب.. قسوة الطبيبة وإهمالها المتعمد لحالة خالتي رغم أنني أخبرتها انها مصابة بداء السكري وضغط الدم المرتفع، وكذلك الكلام الجارح للممرضة جعلني استرجع ذكرياتي مع أمي في المشفى في أيامها الأخيرة.. لهذا عادت إلي مشاعر الكراهية والبغض لهذه المهنة.

ـ لكن اتعرفين يا فدوى بأن هذه المهنة أشرف وأقدس المهن على الإطلاق؟ هل تعرفين ماذا يعني أن تنقذي أرواح البشر؟

ـ لكني لم ألتقِ بطبيب يحمل هذه الإنسانية التي تتحدث عنها!

ـ أما أنا فلقد التقيت بهذا الطبيب صدقيني.. لقد أشرف على حالة والدي.. اتصدقين انه ما أن علم بأننا لا نملك من حطام الدنيا شيء حتى قرر أن يعالج والدي بدون اي مقابل..؟!

أتذكر انه يومها قال لي : متى ما ساءت حالته اتصل بي فوراً حتى لو كان ذلك بعد منتصف الليل!

وفعلاً فلقد ساءت حالة والدي واتصلت بهاتفهِ الشخصي وحينها كان نائماً لكنهُ ما أن سمع بحالة ابي حتى كان عندنا بعد نصف ساعة فقط!

قالت فدوى : وهل كان يعالج والدكَ بالمجان؟

هز شهاب رأسه قائلا : نعم أقسم بالله على ذلك.

ثم أردف محاولاً ثني فدوى عن قرارها الأخير :

ـ اسمعي يا أختاه.. لا تحكمي على جميع البشر من موقف أو موقفين.. ان هذه الحياة مدرسة وكما أن المدرسة فيها الطلاب الجيدين والطلاب السيئين، وكما أن فيها المعلمين الجيدين والمعلمين غير الجيدين فالحياة أيضا فيها أنواع البشر رغم انهم يمتهنون نفس المهن لكن طباعهم وأخلاقهم تختلف !

فلا يمكن أن نحكم عليهم بهذه الطريقة.. ولقد شبهتها بالمدرسة أيضا لكوننا في المدرسة نتعلم الكثير وكذلك في الحياة المواقف المختلفة تعلمنا الكثير وكل يوم يتغير شيء في أذهاننا نحو الأفضل..

قاطعته فدوى : ولكن يا شهاب ألا ترى أن الأعم الأغلب من الأطباء والطبيبات في بلدنا كما وصفتهم أنا..؟!

قال وهو يحاول اقناعها بكل ثقة :

- حتما إن ظروف البلاد السيئة وكثرة المرضى يؤثر سلبا على نفسية الأطباء وكذلك الممرضين.. فالظروف الصحية لبلادنا غير مشجعة على الإطلاق، وعدد المرضى في ازدياد نتيجة سوء الأوضاع للأسف الشديد.

- ولكن لماذا نرى أخلاقهم عالية في عياداتهم الخاصة؟!

يبقى شهاب صامتا وتكمل فدوى بكل حماس كمن انتصر في المعركة : حسنا.. أنا سأخبرك لماذا! في عياداتهم كل مريض يدخل يعني أن الوارد ازداد اليوم، اما في المشفى فسواء كان مريض واحد أو ألف فإنه سيستلم نفس المرتب في آخر الشهر!!

قال شهاب وهو ينظر إلى ساعته :

- حان موعد المحاضرة وأرجو أن تغيري رأيك بخصوص انتقالك إلى كلية أخرى .. ستثبت لك الأيام يا فدوى أن هناك أطباء شرفاء ويخافون الله.

بعد المحاضرة اتجهت فدوى مع شهاب لسحب طلب النقل.. قالت له وهما في الطريق إلى مبنى العمادة : أن كان العميد قد وقع على الطلب فهذا يعني أن الله سهل لي أمر النقل وسأرضخ للأمر الواقع، أما أن كان إلى الآن لم يره ولم يوقعه فسأسحب الطلب فورا.

دخلا غرفة السكرتيرة وطلبا منها معرفة ما جرى بخصوص الطلب، فقالت وهي تبحث في الأوراق التي أمامها : أظن ان الطلب الآن عند المدير.. انتظروا الأستاذ شادي ما إن يخرج حتى اسمح لكم بالدخول عنده .. تفضلوا بالجلوس.

قالت فدوى وهي تميل برأسها نحو شهاب وكأنها تريد أن تهمس له بسرها : أكثر شيء يقرفني في هذه الكلية هو الأستاذ شادي!!

همس شهاب وهو يهم بالجلوس : هذا بسبب تأخرك في محاضراته ولمرتين متتاليتين..صحيح ان اسلوبه قاسي لكنه يصنف ضمن أفضل أستاذة الطب في بلدنا على الإطلاق!

بعد عشرة دقائق من الانتظار خرج الأستاذ شادي وما أن رأى فدوى حتى رمقها بنظرة غريبة جعلت كل فرائصها ترتجف، لاحظ شهاب ارتباكها وقد فسر الأمر لكونها تكره هذا الأستاذ ولا تطيق رؤيته لكن الحقيقة أن نظرة ذلك الأستاذ كانت تحمل خلفها غرائز حيوانية قذرة!!

دخل الاثنان غرفة العميد وسلما عليه وعرفته فدوى بنفسها وبأنها صاحبة طلب النقل.

قال العميد وهو يخرج الطلب : لقد وقعته..

شعر شهاب بالإحباط ولم يعرف ما الذي أصابه حينها..؟! لماذا هجم عليه الحزن مرة واحدة؟ ماذا يعني لو أن فدوى انتقلت إلى كلية أخرى؟! ما الذي جعله يربط مشاعره بها إلى هذه الدرجة!

ابتسمت فدوى ومدت يدها لأخذ الموافقة إلا أن العميد سحب الورقة وأعادها إلى مكانها وهو يقول...

(5)

لن أخذلكِ يا فدوى!!

ابتسمت فدوى ومدَّت يدها لأخذ الموافقة إلا أن العميد سحب الورقة وأعادها إلى مكانها وهو يقول :

- لولا ان الدكتور شادي تدخل في اللحظات الأخيرة ومنعني من التوقيع والموافقة!

صاحت فدوى : ماذا؟! الدكتور شادي؟

تنفس شهاب الصعداء وابتسم كمن أزاح عن صدره حمل ثقيل.

عادت فدوى للسؤال : ولكن لماذا تدخل الأستاذ شادي في أمر نقلي يا دكتور؟

أجابها العميد : لقد أخبرني انكِ من أذكى الطالبات وأفضلهن في المستوى العلمي.. وفي الحقيقة انا لا اريد ان تخسر كليتي طالبة في مثل هذه المواصفات لذلك رفضت الطلب مقتنعاً بكلام الدكتور شادي.

خرجت فدوى من العمادة وقد اختلطت الأفكار لديها، قال شهاب مبتسماً : الحمد لله الذي استجاب لي دعوتي!

لم تنتبه فدوى إلى المعاني الكثيرة التي كانت تحملها كلمات شهاب..

قالت بارتباك : لم أدخل عندهُ سوى محاضرتين ..فكيف عرف بأنني ذكية ومن أفضل الطالبات في المستوى العلمي؟!

أما شهاب فلم يكن في بالهِ غير فرحته الكبيرة بعدم انتقال فدوى من كلية الطب!

مضت الأيام وكانت نظرات الأستاذ شادي تترصد فدوى في كل مكان.. انتبهت زميلاتها بل وحتى زملائها!!

وفي ظهيرة ذاك اليوم الحار بعض الشيء وبينما كانت فدوى تمر بجانب مكتب ذلك الأستاذ حتى خرج من مكتبهِ وأعترضها بشكل ملفت للنظر.. كانت وحدها!

قال وهو يسحبها بلطف إلى داخل المكتب : ادخلي لأخذ شيء من الراحة.. فالجو حار جداً!

حاولت فدوى الامتناع لكنه استطاع بمكرهِ ان يدفعها نحو المكتب ثم أغلق الباب!

مباشرة أخذت هاتفها النقال وصارت تبحث عن رقم شهاب، فقد أعطاها رقمه قبل قليل وهو يقول : قد تحتاجينه يوماً!! وما أسرع ما احتاجت إليه؟!

لم ينتبه الدكتور شادي إلى اتصالها بشهاب ، قال وهو يفتح الثلاجة الصغيرة : هيأتُ لكِ العصير والكعك وحتى المثلجات!

مدَّ يدَهُ ليناولها العصير فتفاجأ انها بدأت تتكلم بهاتفها النقال : هلو.. شهاب انا في مكتب الأستاذ شادي.. تعال إلى هنا فورا.

صُعِق الدكتور شادي من فورهِ ورمى العصير أرضاً وهو يصرخ : أيتها النذلة الحقيرة.. أتمنى أن أعرف طبيعة علاقتك بذلك الكلب!

وهنا طرق شهاب الباب بكل قوة، فتح الدكتور الباب وكان يبدو عليه الارتباك..

قال شهاب مندهشاً : ولكن لماذا تغلق الباب بالمفتاح يا دكتور؟

ردَّ عليه شادي بعصبية : وما شأنك أنت؟

ثم اردف وقد بدى كوحشٍ كاسر : اسمعا أنتما الاثنان.. إن عرف أحد بالموضوع فاعتبرا نفسيكما راسبين هذه السنة بكل تأكيد!

قال شهاب من غير شعور محاولاً امتصاص غضب شادي : اي موضوع يا استاذ.. مخطوبتي اتصلت بي وجئت لاصطحابها!

فغرَ الدكتور شادي فاههُ مردداً وقد خابت جميع آماله : مخطوبتك؟!!

هز شهاب رأسه وهو يقول مؤكداً كلامه : غداً عقد القرآن وبعد غد بإذن الله سيكون كل منا قد لبِسَ خاتم الخطوبة.

طأطأ الدكتور شادي رأسه أرضاً كقائد منهزم، وأشار إليهما بالخروج من المكتب.

خرج الاثنان وهما لا يعرفان كيف جرت كل هذه الأمور؟

قالت فدوى بتأثر : اعذرني لأني جعلتك في موقف لا تحسد عليه!

قال شهاب وقد احمر وجهه من الخجل : بل أنا من يجب أن يعتذر في مسألة..

لم يستطع أن يكمل فقالت فدوى وهي تخفي عبرتها : لقد أنقذتني ولا اعرف كيف ارد لك الجميل.. لو لم تصل لكان حصل ما لا يحمد عقباه.

جلست على احد مقاعد الحديقة ومازال شهاب مذهولاً من كلماتهِ تلك.. كيف قال للأستاذ بأنها مخطوبته؟ وماذا سيفعل بعدها حتى يُصدّقهُ ذلك الأستاذ؟ وأن اكتشف انها كذبة فقد يكون ذلك سبباً لرسوبهما هذه السنة خاصة بعد أن هدَّدهُما بذلك حرفيا!!

مرت لحظة صمت رهيبة كان الاثنان عاجزين عن قول اي شيء، وأخيراً تكلمت فدوى :

- منذ فترة وأنا أرى نظراته الغريبة.. مع الأسف انه يحمل شهادة جامعية عالية.. هل يمكن أن نُسمي هذا البشر بالمثقف!!

ثم صارت تبكي بألم وهي ترتجف من الخوف : لم أعرف ماذا كان يمكن أن يحصل لي لو انك لم تصل بالوقت المناسب.. كان كالوحش الكاسر.. ذلك النذل.. لا أعرف كيف سأتخلص منه ؟!

قال شهاب بثقة :

- يجب أن نُنفذ الخطة!

- ولكن ماذا تقصد؟

- سنضع أنا وأنتِ خاتم الخطوبة ونعلن امام الجميع خطوبتنا، صحيح أن الأمر ليس بالسهل لكني سأتصل بوالدكِ وأخبرهُ بكل شيء عن ذلك الأستاذ فإن كان حريص عليكِ سيوافق من فوره.

قالت وهي تمسح دموعها التي بدأت تهطل أمطارا :

هل ستكون خطوبة فعلية ام مجرد خطة؟

قال وهو ينظر إليها : وماذا تقولين انتِ؟

قالت وقد شعرت بأن ناراً اشتعلت في قلبها :

يجب أن تكون مجرد خطة.. لأني لا استحق شخصاً غيوراً وشهماً مثلك!

تفاجأ شهاب من كلامها.. قال بعد برهة : ولكن لماذا تتكلمين عن نفسكِ بهذه الطريقة؟

وهنا أسقط بيدها فصارت تروي له عن حقيقتها قائلة : أن ابي انسان مجرم وقاتل.. قتل ابن عمه من أجل الأموال والنقود.. هو الآن في السجن!

لم تصدر من شهاب ردة فعل قوية.. قال بكل ثقة : وما ذنبكِ انتِ بكل هذا؟

قالت بدهشة : الستُ ابنته.. فكيف ترضى لنفسك أن ترتبط بإبنة رجل مجرم؟

قال شهاب وقد هزتهُ دموعها وصراحتها :

سأذهب غداً إلى مكان سجنه وسألتقي به لأطلب يدكِ وينتهي كل شيء.. انتِ هنا بسببي انا، كان المفروض أن تنتقلي إلى كلية أخرى لولا تدخلي بالموضوع.. سأحميكِ من ذلك الوحش مهما كان الثمن..ولن أخذلكِ يا فدوى !!

قالت وهي تحاول أن تخفف عليه شعوره بالذنب : لا تنسَ أن الدكتور شادي هو من ألغى طلب النقل ولست أنت!

قال هازاً رأسه : صحيح.. لكنكِ كان بإمكانكِ الإلحاح في طلب النقل وهذا من حقكِ القانوني أن تنتقلي إلى كلية أدنى من كليتك.. لولا أنني حاولت إقناعكِ بالبقاء!

(6)

خطوبة ولكن!

نفذ شهاب ما وعد به فدوى وتوسط له أحد أقاربه بالسماح له لمقابلة والدها في السجن.. وهناك وبعد أن أخبر شهاب والد فدوى بما عزم عليه من خطبته لابنته وما سبب ذلك، قال له الأخير : لن أسمح لك أن تضحك على ابنتي بهذه الطريقة، لقد رأيتها وحيدة لا حول ولا قوة لها، ففكرت منذ الآن بالسيطرة على أموالها ومرتبها في المستقبل القريب عندما تتخرج وتصبح طبيبة يُشار إليها بالبنان!!

حاول شهاب إقناعه بأنه مخطئ في تفكيره لكن ما من جدوى، قال له محاولاً إنهاء المقابلة : سأسمح لكما بارتداء خاتم الخطوبة فقط بدون عقد أو زواج أو كلام فارغ وما أن تتخرج فدوى فيذهب عنها الخطر المتمثل بذلك الأستاذ حينها سترجع إليك خاتمك وكل يذهب في حال سبيله.

ترك شهاب السجن ورحل وقد شعر بأن آماله قد بقيت محبوسة مع والد فدوى!

وفي الجامعة أخبرها بكل ما جرى بينه وبين والدها في السجن ، قالت فدوى وكأنها كانت تتوقع النتيجة : انه لا يفكر إلا بالأموال لذلك يتوقع أن الناس جميعهم مثله لا هم لهم غير جمع المال وتكديسه !!

قال لها شهاب متألماً : لا تتكلمي عن والدكِ بهذا الشكل، مهما يكن قراره فهو لا يريد ايذائكِ به وإنما قصده مصلحتكِ ليس إلا.

قالت بأسى : لقد فكرتُ ليلة أمس بترك الدراسة نهائياً.. وسأبحث عن عمل معتمدة على شهادة الثانوية العامة .

صُعِقَ شهاب وهو يسمع هذه الكلمات، صاح بها : أمجنونة أنتِ؟

قالت وقد بدأت بالبكاء : ألا ترى أن الظروف تحاربني من كل جانب وتمنعني بأي طريقة من إكمال دراستي؟

جاءها صوت شهاب صادقاً كما في كل مرة : منذ اليوم الأول للقائنا وعدتك أن أكون لك سنداً وعوناً وما زلت عند وعدي . ..

****

في صباح اليوم التالي وقد صادف يوم جمعة استغل شهاب يوم العطلة وذهب لزيارة النجف الأشرف، دخل إلى ضريح الإمام علي بن أبي طالب "عليه السلام" وكانت دموعه تجري حرّى وكلمهُ بالقول : سيدي ومولاي.. لقد أدخلتُ نفسي في مأزق كما أدخلتُ تلك الفتاة معي .. قد أكون تسرعت بالتقرب منها بهذا الشكل ! لكني لم اقصد غير المساعدة أقسم بالله على ذلك .. إذ إنني تعلمتُ منكم أهل بيت

النبوة أن لا نرى محتاجاً إلا ومددنا له يد العون، أما الآن وأنا أرى نفسي عاجزاً عن مساعدة هذه الفتاة فسأبقى هنا في حضرتكم ولن أبرح مكاني هذا حتى تجدوا لي حلاً يا مولاي!!

جلس وقد وضع رأسه على ركبتيه وأطلق العنان لدموعه وبقى إلى هذه الحالة حتى سمِع صوتاً لرجل متوسط في العمر وهو يقول : قم أيها الشاب.. وقُصَّ عليَّ مسألتك.. لعلّي أجد لك مخرجاً مما أنت فيه.

رفع شهاب رأسهُ وجاء في روعهِ أن هذا الشخص قد أرسله الله إليه ببركة دعاءه وتوسله في حضرة أمير المؤمنين علي عليه السلام.

قام من مكانه ومشى خلف ذلك الشيخ الذي كان يرتدي عمامة بيضاء وجلسا في زاوية من زوايا الحرم الطاهر..وصار يقص عليه كل ما جرى منذ اليوم الأول في الجامعة إلى هذه اللحظة!

قال الشيخ وهو يبتسم بكل أدب :

مادام والدها وافق على لبسكما لخاتم الخطوبة، فالأمر محلول إذن ولا داعي لكل هذا اليأس والقلق.

ـ ولكن يا شيخ كيف سأمثل دور الخطيب وهي كيف ستمثل دور المخطوبة أمام ذلك الأستاذ وأمام كل من في الجامعة ونحن لسنا بمخطوبَين اصلاً ! ولا يوجد عقد شرعي بيننا؟

ـ الخطبة يا ولدي لا تعني انه يجب أن يكون هناك عقد شرعي.. فهذا الأمر واجب في الزواج وليس في الخطبة.. اشتري لها خاتم الخطوبة وأعطها اياه لتلبسه وأعلنوا في الجامعة خطبتكم حتى يصل الخبر لذلك الأستاذ..

ـ لكن يا شيخ.. حينها يجب أن نمشي سوية ونجلس سوية وندرس سوية وان لم نفعل ذلك سيعرف الأستاذ والبقية بأن أمر الخطبة مجرد خدعة لا أكثر ولا أقل!

ـ يا ولدي انت حالياًطلبت يدها من والدها وهو وافق على ارتداء الخاتم وإعلان الخطبة..يمكنك الجلوس مع الفتاة نصف ساعة أمام الناس على أن لا تتعدى حدودك الشرعية معها في الكلام أو النظر المحرم ، وليكن في نيتك انك فعلا تنوي الزواج بها ما إن يوافق والدها على ذلك.. ثم تلا على مسامعه قوله تعالى (لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرا)!

وأنت كما واضح عليك شاب ملتزم تخاف الله ولا تريد معصيته، حاول استغلال ذلك الوقت الذي تكون فيه معها بأن تفيدها بالنصائح إن كانت هي محتاجة إلى ذلك وأن تقربها من الله أكثر من خلال التزامك وتدينك.

وأنصحك يا ولدي بصلاة الليل فالدعاء فيها مستجاب بإذن الله.. لا تترك هذه الصلاة ابداً لأن آثارها عجيبة ويترتب على أدائها توفيقات كثيرة للدنيا والآخرة.

قام الشيخ من مكانه وقام شهاب احتراماً له وهو يقول : لن أنسَ معروفك هذا ما حييت.. ادعُ الله لي يا شيخ، لا أريد أن ابتعد عن ربي بعلاقتي معها .. ربي عندي أغلى وأثمن من كل شيء في هذا الوجود.. ادع الله لي ارجوك !

هز الشيخ رأسه مبتسماً وهو يقول : سأدعو الله لكما معا.

ومن أرض النجف الأشرف اشترى شهاب خاتم من الذهب لفدوى ودعا الله أن يكون على مقاسها واشترى لنفسه خاتما من الفضة.

ومساء ذلك اليوم كان هو وأخته سهام في منزل فدوى، قامت سهام بأخذ يد فدوى وهي تقول : أتمنى أن يكون هذا الخاتم على مقاسك.. البستها الخاتم وكان فعلا على مقاسها!

قالت سهام وهي ترى الحزن لائحاً على وجه كل من شهاب وفدوى : لماذا كل هذا الحزن.. المفروض أن اليوم هو يوم خطوبتكما!

قالت فدوى والعبرة تخنقها : المفروض.. ها أنت قلتِها.. لقد فرض علينا القدر أن نلبس هذين الخاتمين بإجبار وفرض منه!

وسيجبرنا القدر نفسه على خلعهما بعد ستة سنوات!!

لم ينبس شهاب ببنت شفة، قالت سمية وهي تحتضن فدوى وتقبلها : لدي إحساس بإنكما لن تخلعا هذين الخاتمين ابداً..(لا تدري لعلَّ الله يُحدِث بعد ذلك أمرا) .!

رفع شهاب رأسهُ ونظر إلى الخالة سُمية فلقد هزته هذه الآية.. إنها نفس الآية التي رددها الشيخ على مسامعهِ صباح هذا اليوم!

(7)

ما أشدَّ جهادك يا شهاب؟!

انتشر خبر خطوبة فدوى وشهاب كانتشار النار في الهشيم حتى وصل إلى الأستاذ شادي الذي علَّق على الخبر وهو يجلس بين زملائه : كنت أشعر أن هناك علاقة بينهما لكني لم أكن أتوقع بأنها ستنتهي بالخطوبة وبهذه السرعة! فما زالا في المرحلة الأولى!

قال أستاذ آخر : صحيح ما تقوله دكتور شادي.. فإن أغلب حالات الخطوبة تكون في المراحل المنتهية.. الخامسة أو السادسة.. ولم نشهد هكذا حالة من قبل!!

وفي أول فرصة جمعت فدوى مع شهاب قالت بفضول : كيف اشتريت هذا الخاتم الرائع ؟.. انه غالي الثمن!

أراد أن يقول لها (لا يغلى عليكِ شيء) لكنه استبدل العبارة بالقول : لقد سهّلَ الله أمرَ شرائِه.

قالت وهي تلاحظ ارتباكه : لقد عرفتَ كلَّ شيء عني في هذه الفترة ولم اعرف عنك إلا الشيء القليل!

قال بعد برهة من الصمت : أنا الأخ الأكبر لثلاث أخوات.. كنا نعيش بسلام إلى أن أصابت ابي جلطة في الدماغ فقدَ على أثرِها بصرَهُ.

قالت بتعجب : وما سبب الجلطة؟

- خسارة صفقة كبيرة لم تكن في الحسبان ورغم أن ابي لا يهمه أمر المال كثيراً لكن ديونه كانت كثيرة وحياتنا صعبة، صحيح انه مقاول لكن رزقه كان محدوداً، وكان يعوّل على هذه الصفقة والتي هي عبارة عن مشروع بناء مجمع سكني، وعندما جمع الأموال من الناس وسلّمها للشركة القائمة على المشروع ظهر بعد فترة انها وهمية وقد سرق أصحابها الأموال وهربوا خارج البلاد وبقى والدي يسدد للناس حتى وصل ومن شدة التفكير بكثرة الديون إلى العمى الدائم!

كان عمري حينها احد عشر عاماً ، عندها قررت أمي تركنا مع أبي لترحل بعيدا.

صاحت فدوى : بعيداً؟ ولكن إلى أين؟

- لا أعلم.. توسل إليها ابي للبقاء لكنها رفضت.. إلى الآن اتذكر كلماتها القاسية وهي تقول لأبي (لا يمكنني العيش مع رجل ضرير لا يستطيع أن يأتي لي بلقمة العيش) !!

- وهل تركتكم فعلاً ورحلت؟

- نعم للأسف.. فبعد أن أجبرت ابي على طلاقها جمعت أغراضها ورحلت.

قالت فدوى ولم تعد تسيطر على دموعها :

- يالقسوتها!!

- بعدها صرتُ اذهب للمدرسة صباحاً، وأعمل عصراً عند بائع الأقمشة.. وقد كان صديقاً لوالدي.

- ووالدك هل بقى على حاله؟

- نعم للأسف.. بل وساءت حاله أكثر بعد رحيل امي فكان يقضي ليله ونهاره بالبكاء إلى أن فارق الحياة بعد عام واحد من رحيلها !

- وهل بقيتم هذه الأعوام جميعها بلا أم ولا اب؟

- نعم.. لقد قررتُ حينها أن أكون أنا لأخواتي بمثابة الأم والأب معاً.. سهام ومرام وختام.. الفرق بين واحدة وأخرى عامين كاملين والفرق بيني وبين سهام أيضاً عامين كاملين!

- وهل استمرت كل واحدة منهن في الدراسة أيضاً ؟

- نعم ولله الحمد..كنت أحاول أن أُلبّي لهن كل احتياجاتهن بمساعدة ذلك الإنسان الطيب "الحاج فاضل" صاحب محل الأقمشة .

قالت فدوى وهي تمسح دموعها : ما أشدَّ جهادك يا شهاب؟

قال لها بارتباك : وهل تبكين؟ امسحي دموعكِ ارجوكِ .. ماذا يقول الطلبة الآن.. أفي اول لقاء بعد الخطوبة تبكين؟

قالت وما زالت غارقة بدموعها : هل ما زلت تعمل إلى اليوم؟

- نعم وماذا نأكل إن لم أعمل؟ لكن أختي سهام صارت تعينني كثيراً.. إذ طلبت مني أن اشتري لها ماكنة خياطة وكانت تذهب عند جارتنا تتعلم منها فن الخياطة ، ولما علم بها الحاج فاضل صار يرسل إليها الأقمشة لتخيطها ثم يعرض ما تخيطه من ملابس في المحل حتى أصبح لها زبائن لا بأس بهم ولله الحمد.

ابتسمت فدوى وهي تتنفس الصعداء وتقول : الحمد لله.. جزاها الله خيراً إذ صارت تعينك.

عادت إلى نبرة الحزن مرة أخرى وهي تقول : انت عانيت بسبب سوء تصرفات امك وأنا عانيت بسبب سوء تصرفات ابي.. يالحظنا العاثر!

قال شهاب محاولاً تأنيبها :

- لا تقولي هذا أرجوكِ .. إن النِعَم التي اغدقنا بها رب العزة لا تُعد ولا تُحصى، فنعمة العقل ونعمة الإسلام ونعمة الولاية لأهل البيت عليهم السلام ونعمة الصحة ونعمة الستر ونعمة اكل لقمة الحلال.. كلها نِعم عظيمة يجب أن نحمد الله عليها الف الف مرة.

قالت فدوى بدهشة : ما أجمل نصائحك يا شهاب! إنها تبعث في الروح الأمل والتفاؤل والإيمان.

قال وهو ينهض من مكانهِ : إن أعجبتكِ نصائحي فعلاً .. فسأزيدكِ في كل جلسة إلى أن تشعري بالتخمة منها!!

قالت وهي تنظر إلى وجهه مباشرة بعد أن وقف وأصبح في قبالها : لا أعتقد بأني سأشبع من كلماتك ومجالستك..!

احمر لون وجهه خجلاً وتذكر ما قاله له الشيخ عن طبيعة علاقتهما، قال وهو يحاول إنهاء الحديث : حان وقت الصلاة.. سأذهب إلى المصلى عن إذنك!

(8)

سأشتاق الى نصائحك!

كانت الأسابيع تمضي بسرعة ولم يجد الطلبة أنفسهم إلا وقد وصلوا إلى نهاية الكورس الأول، وفي آخر لقاء قبل العطلة الربيعية قالت فدوى لشهاب : سأشتاق إلى كلماتك ولا أظن بأني سأحتمل الفراق لمدة أسبوعين كاملين!!

لم ينبس شهاب ببنت شفه فما عساه أن يقول لها؟!

قالت وقد أقلقها سكوته : هل تسمح لي بالاتصال على هاتفك النقال؟

قال كمن ارعبه خبر مفزع : ماذا؟ تتصلين بي؟ طبعا لا اسمح! أقصد فقط إذا كان الأمر ضروري جداً..

أذهلها موقفه وشعرت بأنه يطعنها بسكين في ظهرها بتصرفه المفاجئ هذا..!

قالت وهي محاولة إنهاء اللقاء : آسفة كثيراً.. الظاهر أنني صدقت نفسي بأني مخطوبتك! اشكرك كثيراً لأنك نبهتني على هذا الأمر.

قال بارتباك : ولكن أي أمر تقصدين.. وعلى ماذا نبهتك؟

أجابت ودموعها تسبق كلماتها : على أنني لست سوى إحدى الركائز التي تستند عليها الخطة.

قال ومازال لا يفهم قصدها : خطة؟ ولكن بربك ماذا قلت انا حتى بدأتِ بالبكاء هكذا.. امسحي دموعك قبل أن يراك أحد!

صاحت في وجهه وهي تبتعد :

هذا كل ما يهمك! ان لا يراني احد ابكي فتفشل خطتنا.. لقد مللت من التمثيل ولا طاقة لي على الاستمرار..

التفتت نحوه فجأة ثم عادت ادراجها وهي تقترب منه أكثر، قالت والكلمات تتقطع في فمها : افتح يدك..

ثم خلعت الخاتم وقدمته له وهي تقول : خذه.. فما عدت أخشى ذلك الأستاذ..!

نظر إليها نظرات حادة ثم أشار إليها بالجلوس على المقعد الذي تعودا الجلوس عليه طيلة هذه الفترة..

جلست وهي ما زالت تمسك بخاتم الخطوبة بيدها..!

قال بعصبية : اعيدي الخاتم إلى اصبعك.

قالت بتهكم ممزوج بالعناد : لن أعيده!

صاح في وجهها وقد احمرت أوداجه غضباً : قلتِ لك اعيديه!

شعرت بالخوف وهي تنظر إلى عينيه التي بدت وكأن الشرر يتطاير منها!!

أعادت الخاتم وهي تقول : ما خلتك (عصبي) إلى هذه الدرجة!

قال لها وما زالت عيونه ترسل شرراً : اسمعيني جيدا.. يكفيني ما يقوم به الشيطان والنفس الأمارة من وسوسة وايذاء لي، انا في حرب معهما ثم ها أنتِ تزيدين الطين بلة بوقوفك معهما ضدي!

لمحت فدوى دمعة تلألأت في عينه فخفضت رأسها وهي تقول : لا سامحني الله أن كنت آذيتك إلى هذه الدرجة..!

اكمل وهو يحاول السيطرة على أعصابه : نحن نتكلم كل يوم مع بعضنا نصف ساعة وأحيانا أكثر.. في هذه الفترة لا تعرفين كم اعاني حتى لا اتعدى حدودي معك لا سمح الله.. لكني أشعر بأن الله معي ولا يؤاخذني على جلوسي معك لأن هناك سبب معقول لجلوسنا هذا.. وهو أن نكون امام الناس وأمام ذلك الأستاذ الحقير مخطوبين فعلا فلا يتجرأ أحد على ايذائك أو اسماعك كلمة سيئة بخصوص علاقتنا.

هذا هو عذري أمام الله ولكن عندما تتحول هذه اللقاءات إلى مكالمات هاتفية لا يرانا فيها أحد ـ إلا الله ـ فما عذرنا حينها!؟

سامح الله أباكِ.. لو انه وافق على عقد القِران لما عانينا كل هذه المعاناة!

ـ ولكن لماذا تخشى هذه المكالمات؟ ماذا عسانا أن نتكلم بغير كلامنا العادي واليومي.. إما عن الدراسة وإما عن الدين؟!

ـ يا فدوى افهميني ارجوكِ .. نحن غير مجبرين على اتباع هذه الوسيلة! ثم هل يعلم والدكِ بهذه المكالمات؟ انت عرضه وشرفه.. وإن أنا تعديت حدودي فسيرسل الله من يتعدى حدوده مع عرضي وشرفي.. سيأتي من يهاتف أخواتي دون علمي.. لأن الدنيا دائرة و(من طرق باب الناس طُرِقت بابه) و(كما تُدين تُدان) و(عفّوا عن نساء الناس تعفُّ نساؤكم) هذه هي أقوال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الخصوص.. فكيف تريدين مني بعد ذلك أن اتصل بك هاتفياً؟

قالت وهي تشعر بالندم : صدقني لولا أنني سأشتاق إلى نصائحك الرائعة لما طلبت منك ذلك الطلب ابدا.

قال وهو يستعد للذهاب : لن اجعلك تشتاقين لنصائحي ، سأرسل إليكِ يومياً على هاتفك نصيحة من كتاب أو موقع إلكتروني أعجبني.. ان كان هذا يرضيك! لكن اتركي مسألة الاتصالات نهائياً .

(9)

ما أرحمك يا الله !!

وكما وعد شهاب فدوى ومنذ اول يوم من أيام العطلة الربيعية صار يبحث لها عن كلمات مؤثرة ليرسلها إليها هاتفياً لعلها تكون سبباً لتقربها إلى الله أكثر..

كان يبحث في مكتبته المتواضعة عندما سألته سهام :

هل تبحث عن كتاب معين؟

أغلق الكتاب الذي في يده وهو يقول : انتِ هنا؟ لم الحظ دخولكِ!

جاءه صوت سهام مملوءاً بالحنان : انت هذه الأيام لا تلاحظ شيئاً على الإطلاق، وكأنك تعيش في عالم منفصل عنا!!

قال وهو يجلس بقربها ويمسح على رأسها : لماذا يا حبيبة أخيكِ .. هل حدث أمر سيء لا سمح الله؟ لماذا تعاتبينني بهذا الشكل؟

أجابته بأدب : منذ خطبتك لتلك الفتاة وأنا الاحظك شارد الذهن ومشغول البال!

ـ لكنكِ تعرفين انها ليست خطبة بالمفهوم المتعارف عليه.. ارفعي حرف الباء منها وستظهر لك حقيقتها للأسف!! انها خطة ليس أكثر!!

ـ نعم اعرف ذلك.. لكن هذه الخطة صارت تؤثر سلباً على صحتك وحتى على علاقتك بنا نحن اخواتك!

وقبل أن يجيب أكملت بألم : كنتَ سابقاً تجلس معنا أكثر.. تسأل عن دراستنا وعن أمورنا.. أما الآن فأنتَ بين الجامعة والمحل والغرفة!!

قال وهو يطأطأ رأسه خجلاً : كلامكِ صحيح يا حبيبتي.. لقد أهملتُ نفسي وأهملتُكن بعض الشيء .. ولكني أعدكِ أن لا أكررها مرة أخرى.. فقط ظروفي كانت صعبة ووضعي الجديد جعلني مرتبك ومشغول الفكر دائماً .

تساءلت بفضول وهي تحاول أن يفتح لها قلبه فيزيح عنه هذه الهموم : ولكن ما به وضعك الجديد؟

قال وهو يسحب نفساً عميقاً ويخرجهُ على شكل حسرة مؤلمة : لا أعرف.. فلا أنا خاطب فعلاً ولا أنا اعزب!!

قالت سهام : ساعدك الله يا أخي.. وجعل تلك الفتاة من نصيبك.

سألها : هل لديكِ كتاب جميل يعطي نصائح للفتيات؟

- لماذا تسأل؟

- لقد وعدتها أن أرسل لها نصائح مؤثرة في كل ليلة من ليالي العطلة.

- ما الذي ينقصها هي في علاقتها مع الله..؟

- لم أفهم قصدك؟

- هل تلاحظ عليها شيء من المعصية؟ قد تكون تاركة للصلاة مثلا؟

- لا... إنها تصلي.. لكنها حديثة العهد بالصلاة.. بعد أن دخل والدها إلى السجن قررت أن تلتزم الصلاة ولا تتركها ابدا.

- حسناً جداً .. هل تضع شيئاً من مساحيق الزينة؟

- رغم اني لا أطيل النظر في وجهها لكني لمحتها أكثر من مرة تضع احمراً للشفاه!

- حسناً.. وملابسها.. واسعة ام ضيقة جداً ؟ تحاول أن تبرز مفاتن جسمها ام لا؟

- ليس كثيراً .. لكنها تحتاج إلى ملابس شرعية أكثر.

- إذاً هي تحتاج لمعرفة الله أكثر.. حتى تحبهُ أكثر ثم تحاول أن تطيعهُ أكثر.. فتبحث عن مرضاتهِ في كل صغيرة وكبيرة.

قال لها وهو يهز رأسه بالإيجاب: الآن توضحت الصورة لديّ .. سأرسل إليها ما تحتاجه من كلمات.. شكراً لترتيب أفكاري المبعثرة!!

قالت سهام مبتسمة : انا في الخدمة دوماً .. أخي الحبيب.

وقبل أن تخرج من الغرفة قال لها بصوت يملؤه الحنان والمحبة : غداً بإذن الله سنتناول غداءنا خارج المنزل .. هيأنَ أنفسكن.

عادت سهام وطبعت قُبلة على جبين شهاب وهي تردد : سلَّمك الله من كل مكروه وحفظك لنا يا غالي.

بعد خروج اخته من الغرفة صار يبحث عما تحتاجه فدوى.. وأخيراً استقر على نصيحة جميلة.. ارسلها الى هاتفها وهو يدعو الله أن تؤثر فيها هذه الكلمات تأثيراً إيجابياً.

كانت تتحدث مع سمية عندما سمعت نغمة الرسالة : ركضت إلى هاتفها وفتحته.. كانت دقات قلبها تتزايد، قالت لمربيتها : انها رسالة من خطيبي .. يالفرحتي! عن اذنك يا خالة.

دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها، جلست على السرير وبدأت تقرأ :

أنا لا اعلم كم من المرات ساق الله لي الألطاف والتسخير في غيبهِ .. وكنت أظن أن الظروف التي تحدث معي أمراً روتينياً ولكن حينما اتأمل في تفاصيلها أندهش من عظيم رحمة الله التي حلّت فيها لأوقن تماماً :

أن الله دائماً معي وأنني لم أكن يوماً بمفردي..

فهو القائل في حديثٍ قدسي :

" وعزّتي وجلالي لأُدبرنَّ الأمر لِمن لا حيلة له حتى يتعجّب أصحاب الحِيَل ".

دمعت عيناها وعادت لها هذه الكلمات ذكرى ذلك الموقف الذي صدر من الدكتور شادي في غرفة المكتب الخاصة به ، وكيف كانت في لحظتها بلا حول ولا قوة ، كيف اعطاها شهاب رقمه قبل الموقف بلحظات!!

انه فعلاً تدبير الله لها.. ففي الوقت الذي كان يخطط فيه ذلك الأستاذ لأمر قذر.. كان (الله) في ذلك الوقت يدبر لها مخرجاً مما ستكون فيه!

لماذا أعطاها شهاب رقمه فجأة وهو أصلاً ضد العلاقات الهاتفية بين الجنسين؟ دخل في روعها بأن الله قد أرشده إلى ذلك.. فقط لينقذها مما سيحل بها بعد قليل!!

تذكرت كيف جاء شهاب بعد لحظات ونطق بتلك الكلمات.. أيضا من غير إرادته! نعم هذا ما أكده لها بعد ذلك الموقف.

كان كل شيء يسير وفق تدبير إلهي.. وهي غافلة!

كيف تعجب الدكتور شادي وفشلت خطته الماكرة بعد سماعه خبر الخطوبة؟ كان في بالهِ ان يحتال عليها لكن الله بلطفه ورحمته دبّر لها حيلة أقوى من حيلته!!

عادت لتقرأ كلمات ذلك الحديث القدسي وقد غسلت الدموع وجهها وبدت لها الكلمات الإلهية تلك وكأنها تخاطبها هي لا غير " وعزّتي وجلالي لأُدبرنَّ الأمر لمن لا حيلة له.. حتى يتعجّب أصحاب الحِيَل ".

(10)

بماذا أستبدل الروايات الخادشة للحياء؟!

حاول شهاب أن يكون في المنزل قبل حلول الظهيرة بعد أن استأذن من الحاج فاضل، وما أن دخل المنزل حتى وجد أخواته قد هيأن أنفسهن للخروج في نزهة كما وعدهن يوم أمس .. فقال وهو يشرب كوباً من الماء البارد : بدأ الجو يزداد دفئاً.. لقد حلَّ الربيع فعلاً.. ولهذا ستكون نزهتنا إلى إحدى الحدائق الجميلة..سنتناول غداءنا هناك.

وفي تلك الحديقة الزاهية بأنواع الزرع ووسط الزهور رائعة الجمال زكية العطور وقف شهاب ليُصلي بكل خشوع وهيبة، بينما اتجهت الأخوات إلى مكان منعزل قليلاً لتأدية الصلاة ولما عُدنَ إلى حيث شهاب وجدنه قد هيأ الطعام .. بدأ الجميع بالأكل وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، قال وهو يمسح شفتيه بعد أن ناولته ختام منديلاً مبللاً : الحمد لله على نعمهِ التي لا تُحصى..

رددت أخواته : الحمد لله.. الحمد لله.

بعد الصلاة والغداء قام الأربعة ليتمشوا بين الأشجار والزهور، وقفوا قرب بحيرة صغيرة تتوسطها نافورة ماء جميلة ليلتقطوا بعض الصور.. وبين كل هذه المشاهد كان شهاب يتمنى لو كانت فدوى معهم الآن لاكتملت سعادته!!

عندما عادوا مساءا تذكر وعده لفدوى فأخرج هاتفه النقال ليرسل لها نصيحة فوجد أن هناك رسالة قد وصلته منها من غير ان ينتبه اليها !

فتحها وبدأ يقرأ : عزيزي شهاب.. بعد أن جاءتني رسالتك يوم أمس بكيتُ كثيرا لأنني أحسست بالتقصير تجاه ربي.. فهو معي في كل حين لكنني مازلت غافلة عنه ..

بعد رسالتها هذه حمد الله إذ استجاب دعوته ثم اتجه إلى مكتبته واستخرج منها الرواية التأريخية "تراتيل في زمن الذئاب" لمؤلفها كمال السيد ثم صار يكتب لها بعض الاقتباسات من هذه الرواية :

عندما يسلم الإنسان قلبه إلى السماء تضيء في أعماقه الآيات الكبرى.. فيرى الوجود حركة موحدة متناسقة تتجه إلى غاية وهدف، وعندما يختار الإنسان بإرادته الاندماج في هذه الحركة.. الأنصهار في بوتقة الوجود.. عندها يرى الأشياء على حقيقتها بعيداً عن زيف الزمن.

وعندما يتجه الإنسان إلى ربه.. فإنه يستمد طاقات جبارة هي جذوة من القدرة المطلقة.

استلمت فدوى الرسالة وما أن قرأتها حتى رحل تفكيرها إلى حيث الفضاء الشاسع الذي فيه كل آيات الوجود!

شعرت وكأن الرسالة قد زودتها بجناحين جعلتها تحلق بعيداً.. بعيداً جداً حيث عالم الطهر والنقاء.

قبل أن ينتهي الأسبوع الأول من العطلة ارسلت فدوى رسالة إلى شهاب كتبت فيها : ماذا تنصحني بخصوص الروايات الغربية التي امتلأت مكتبتي بها وكذلك بعض الروايات العربية.. علما أن جميع الروايات التي عندي فيها وصف للعلاقات العاطفية والجنسية وصفاً خادشاً للحياء!؟

هل استمر بقراءتها ام انها تعرقل حركة توجهي إلى الله؟

فكتب إليها ما أوصى به السيد روح الله الخميني بهذا الخصوص إذ كان مضمون وصيته :

(فليحذر شبابنا.. إن الغرب لن يأتي لمحاربتكم شاهراً السلاح ،بل يأتي رافعا القلم .. إن الغرب لن يجلب جندياً بل يجلب كاتباً ومؤلفاً إلينا)..

يمكننا أن نستبدل الروايات الخادشة للحياء يا فدوى بالروايات الهادفة التي تزيد في معرفتنا وثقافتنا العامة .. واليك أسماء المؤلفين لهذه الروايات الهادفة والرائعة وهم (الشهيدة بنت الهدى، كمال السيد، خولة القزويني، عالية محمد صادق، د. فخري مشكور) وآخرين.. وأكثر رواياتهم شبابية تجمع بين الدين والعاطفة السليمة

أما تلك الروايات التي تقبع في الضفة الأخرى المُعتمة فعليكِ الإقلاع عنها لأنها تشوه فيكِ روح التقوى وتساعدك على التفكير السيء الذي لا يزيد الإنسان إلا ابتعاداً عن الخالق..

فكم من شاب وشابة تركوا دينهم والتزامهم بسبب الإكثار من قراءة هذه الكتب؟!

فهمت فدوى المقصود من الرد وقررت أن تترك قراءة هذه الروايات، لكنها صارت تشعر بفراغ كبير وما زال أمامها أسبوعا كاملاً للعطلة، حاولت أن تفكر بماذا تملأ أوقات فراغها فلم تعرف؟ بالنسبة للتلفاز فلقد كانت أكثر مسلسلاته وأفلامه لا يقل تأثيرها السلبي عن الروايات التي أقلعت عنها!!

(11)

الأستاذ شادي.. من جديد!

كتبت فدوى لشهاب تقول : دُلّني على شيء املأ به أوقات فراغي، التلفاز والانترنت صارا مملين بالنسبة لي، كما أنني أقلعتُ عن قراءة الروايات غير النافعة ولا تتواجد لديَّ حالياً الروايات التي أشرت اليَّ بقراءتها.. فبماذا تنصحني أن أملأ اوقات فراغي في الأيام الباقية من العطلة؟!

جاءها الرد :

قال تعالى..

((يَـا يَحيَى خُذِ الكتَاب بقوّة))

خُذه إلى أين ؟

إلىٰ الرَّف لكي يترَاكم عليه الغُبار ، ويُزاح عنه بين "رمضان" وآخر ؟

إلىٰ دورات الحِفظ ومُسابقاتِه ؟

إلىٰ السَّيَّارة ليحفظها ورَاكبيها ؟

إلى القُبور لكي يُقرأ على الأموَات؟

خذه إلى أين؟!

خُذه إلى أعمَاقِك ، خذهُ إلى تَلافيف مخك، خُذه لِيسري في عُروقِك ، في تنفُّسك ، في شَهيقِك وزَفيرك.

خُذه لكي يكُون كتاب (التَّعليمات) فِي حَياتك؛ الَّذي يرشدك كَيف تستعملُ نفسكَ.

أغلقت الرسالة وضمت الهاتف إلى قلبها وهي تقول : إلهي لا تحرمني من نصائحه.. إنها والله الدواء لروحي المريضة!

توضأت وفتحت القرآن وقبل أن تقرأ سورة الفاتحة نوت أن تختم القرآن وتهدي ثوابه لروح والدتها كما قررت أن تكون قرائتها هذه المرة بكل تفهم وتروي وستقف عند كل آية غير مفهومة لتشير عليها ثم تسأل الخالة سمية أو قد تسأل شهاب عن معناها..

إنها في السابق لا تقرأ القرآن إلا في شهر رمضان! بينما مُربيتها سُمية تقرأه في كل يوم وبعد كل فريضة، كم تمنت أن تكون مثلها لكن لم يكن هناك ما يشجعها.. أما اليوم فلقد فهمت الحكمة من تعلق سمية بالقرآن الكريم.. إنها تعتبرهُ كتاب تعليمات لحياتها ونفسها لذلك تراها مطمئنة دائماً وراضية بما قسمهُ الله لها وهي في الوقت نفسه ملتزمة بكل تعاليم ربها.

قضت فدوى ذلك الأسبوع بين السور والآيات القرآنية وكانت تشاركها سمية في تفسير بعض الكلمات والآيات غير المفهومة عندها.

لم يرسل إليها شهاب في ذلك الأسبوع اي نصيحة، ولم تلتفت هي إلى الأمر.. وكأن النصيحة الأخيرة أغنتها عن كل النصائح!!

****

تكثفت الدراسة في الكورس الثاني ولم يكن هناك أي مجال للجلوس والتحدث كالسابق، كان هذا الأمر مريح للطرفين!!

في السابق كان شهاب هو الطرف الأكثر عدم ارتياح من تلك الجلسات أما اليوم فحتى فدوى صارت روحها لا ترتاح لتلك الجلسات خوفاً على علاقتها مع الله، صارت الآن تدرك ما كان يُعانيه شهاب من أجل أن يبقى عبداً طائعاً لربه.

كانت فدوى مشغولة مع زميلاتها بينما شهاب مشغول مع زملائه وحتى في قاعة المحاضرات صارت فدوى تتجنب الجلوس في المقعد القريب من مقعده!

لم ينتبه الطلاب كثيراً لأنشغالهم بالدراسة والامتحانات والذي كان منتبهاً لكل هذا التغير هو الدكتور شادي فقط !!

لقد كان يراقبهما في القاعة والممرات ومن شباك مكتبه!

استوقفها مرة ليسألها : أعجب انكِ وشهاب إلى الآن تلبسان خاتمي الخطوبة..!

قالت وهي تبلع ريقها بصعوبة : لماذا العجب يا أستاذ..؟

قال بمكر : لا أراكما معا أبدا.. هل الدراسة تشغلكما إلى هذه الدرجة؟ هل الحب عندكما أمر ثانوي بحيث فضلتما الدراسة عليه؟

قالت وهي تحاول أن تكون متماسكة : أن الدراسة عندنا الآن أهم من أي شيء آخر.. هل تعرف لماذا يا دكتور؟

قال وقد اتسعت حدقتا عينيه : لماذا؟

- لأننا إن لم ننجح ونتخرج سيتأخر زواجنا .. هذا ما قرره والدي للأسف الشديد!!

قالت عبارة (للأسف الشديد) بكل وضوح وكأنها تريد أن توصل إليه رسالة ما.

ولم يكن شادي قليل الذكاء فلقد وصلته رسالتها مفهومة جداً فقال بخبث : هل تحبينه إلى هذه الدرجة بحيث تضحين بجمال فترة الخطوبة لأجل أن لا يتأخر الزواج عن موعده المحدد!!

أقطبت حاجبيها ولم تجبه، فأكمل بكل ما لديه من وقاحة : لو كنت مكان خطيبكِ لما فرطت بهذه الفترة ابدا، فلا يمكنني أن اقاوم وانا ارى حبيبتي معي يومياً في الجامعة ثم لا اقترب منها و..

لم تعد فدوى تتحمل وقاحته فتركته يتكلم وركضت باكية، شاهد الموقف بعض الطلبة فأسرعوا إلى شهاب ليخبروه بما حصل لخطيبته..

بحث عنها شهاب كثيراً لكنه لم يجدها.. اتصل على هاتفها فلم ترد!

وصلت إلى المنزل وما أن شاهدت سمية حتى ارتمت في حضنها وهي تبكي وتندب حظها العاثر، لم تفهم منها شيئاً في البداية لكن وبعد أن هدأت قليلاً أخبرتها بكل شيء، صارت سمية تمسح على رأس صغيرتها حتى نامت وهي على الأريكة ، تركتها في مكانها وغطتها بشرشف خفيف وهي تقول : مسكينة! سهرت الليل كله في الدراسة والتحضير لامتحان اليوم ثم ها هو الحقير يحرمها من أداء ذلك الامتحان!

استقل شهاب سيارة أجرة وذهب إلى منزل فدوى تاركاً الامتحان هو الآخر..

تعمد الدكتور شادي أن يكون هو المراقب على قاعتهم الامتحانية في ذلك اليوم ..ظناً منه انه سيعيد الصاع صاعين لفدوى وسيتهمها هي وخطيبها بالغش .. ولشدَّ ما ادهشهُ أن كليهما لم يحضرا ذلك الامتحان!!

طرق شهاب باب الشقة وأسرعت سمية لفتحه، قالت وهي تشير إليه بالدخول : ادخل يا ولدي.. البيت بيتك!

وما أن دخل الصالة حتى لمح فدوى نائمة على الأريكة!

عاد إلى الوراء غاضا بصره..

قالت سمية : ادخل يا ولدي انها بكامل حجابها.. المسكينة ما أن وصلت حتى استسلمت إلى النوم بعد البكاء والسهر.

قال وهو يخفض صوته : لن ادخل يا خالة فقط أردت أن أعرف ما الذي حدث لها في الجامعة.. هل أخبرتك بشيء؟

ـ نعم يا ولدي لقد استوقفها ذلك الأستاذ واسمعها كلاماً جارحاً بخصوص علاقتها بك؟

ثارت ثائرة شهاب وهو يستمع إلى كلمات سمية، قال وقد شعر بأن الدماء صارت تغلي في عروقه : سأبقى واقفاً هنا إلى أن توقضيها.. يجب أن أتحدث معها ارجوك.

ـ حسناً يا ولدي.. انتظرني لحظات.

وفعلاً فما أن سمعت فدوى اسمه على لسان سمية حتى قامت من مكانها راكضة نحو المطبخ .. رشّت على وجهها بعض الماء البارد وأعادت ضبط حجابها ثم خرجت إليه بعد أن أدخلته سُمية إلى الصالة.

وما أن التقت عيناه بعينيها حتى فقدت السيطرة على دموعها جلست أمامه وأطلقت العنان لتلك الدموع فلم تعد تحتمل أكثر!!

خرجت سمية من الصالة لتتركهما معاً، قال وهو يحاول أن يهدأ من روعها :

- لن افهم منكِ شيء إن بقيتي تبكين هكذا.. ارجوكِ لا تزيدي حرقة قلبي أكثر.. ماذا حصل أخبريني؟

توقفت عن البكاء وصارت تتكلم بصعوبة.. سردت له كل ما حصل بينها وبين ذلك الأستاذ!

قال وهو مطأطأ الرأس : كان ابتعادنا عن بعضنا كل هذه الفترة خطأ كبير.. الظاهر انه يراقبنا جيدا!

قالت وهي تمسح دموعها : يعلم ربي لماذا ابتعدت عنك ولماذا لا أريد مجالستك.

قال وقد أثارت كلماتها فضوله : ولماذا.. هل لي أن أعرف؟

قالت بارتباك : أشعر بأنني في رحلة.. هي رحلة التوجه إلى الله.. أخشى ان يكون جلوسنا معاً فيه شيء مما يغضب الله عني فأخسر تلك الرحلة وأعود من حيث بدأت!!

لم يُعقب شهاب على كلامها لكن الفرحة التي شعر بها كادت تُنسيه حتى موقف ذلك الأستاذ اللعين!

قال وهو يتهيأ للرحيل : سنعود لنلتقي.. مرة في الأسبوع على الأقل.. وسيكون الله معنا.

قالت بعد برهة : كيف كانت الأسئلة اليوم؟

ضحك من كل قلبه وهو يقول : وهل تسألينني؟!!

استغربت جوابه ثم قالت : نعم أسألك.. ألم تؤدي الامتحان؟

- لا .. لقد جاءنا الصفر معاً!!

خجلت من كلامه وعادت للبكاء قائلة : لقد عانيت بسببي الكثير يا شهاب.. وها أنت تحرم نفسك من أهم امتحان في هذا الكورس بسببي أيضاً، لا أعرف كيف أصف لك اعتذاري!

قال وهو يحاول أن يخفف عنها شعورها بالذنب : وكيف ادخل إلى الامتحان وانا لا أعرف ماذا حلَّ بك؟ ماذا كنت سأكتب في ورقة الامتحان حينها؟ لا تحزني..

سيعوضنا الله ولن نرسب.. ما دمنا مع الله ومادام الله معنا.

(12)

في يوم الاحتفال..

صار موعد الاحتفال بيوم ذكرى تأسيس الجامعة يقترب.. كان الجميع يتهيأ لهذا اليوم البهيج، قرر شهاب أن يصطحب أخواته الثلاثة معه إلى الجامعة في هذا اليوم، ولما أخبر فدوى بالأمر قالت بفرح غامر : وأخيراً سألتقي بختام ومرام.. هل هما تشبهان سهام؟

قال شهاب مبتسماً : أخواتي لا تشبه أحداهن الأخرى.. ختام تشبه ابي ومرام تشبه امي وسهام تشبهني!

قالت فدوى من غير قصد : وأنت تشبه من؟

خفض رأسه وشعرت هي بالاحراج أيضا.. قالت في نفسها : لعنة الله على تفاهتي.. كم انا غبية.. اغفر لي يا رب!!

حاولت أن تغير الموضوع فقالت : ولكن كيف سيأتين معك.. ودراستهن؟

قال وقد اعجبه نجاحها في تغيير الموضوع :

- إن مدرستهن ستعمل في نفس اليوم سفرة إلى العاصمة وأنا فضّلتُ أن اجلبهن معي.. أليس هذا أفضل؟

قالت بسرعة : نعم أفضل بالتأكيد.. ولكن هل هُنَّ في نفس المدرسة؟

- نعم مدرستهن ثانوية عامة (متوسطة واعدادية معا) فسهام في الخامس العلمي، ومرام في الثالث المتوسط، وختام في الأول المتوسط.

قالت فدوى وهي تشعر بالسعادة : ما أشوقني لرؤيتهن.. أنا متأكدة بأني سأقضي أجمل الأوقات معهن .

جاء يوم الاحتفال، والتقت فدوى لأول مرة بمرام وختام أما سهام فكانت قد التقت بها سابقا في يوم لبسها خاتم الخطوبة عندما جاءت مع شهاب إلى منزلها.

قالت فدوى بفرح غامر : سوف يكون يوماً مميزاً تعالين معي لأعرفكن على زميلاتي..

قضت الفتيات الثلاثة ذلك اليوم بين اقسام وكليات الجامعة تصطحبهن فدوى وبعض زميلاتها..

همست مها وهي أقرب زميلة لفدوى : إنهن ملتزمات جداً.. لا يضعن المكياج ويرتدين العباءة الزينبية!!

ارتبكت فدوى قليلاً وشعرت بأن مها تقارن بينها وبينهن، أردفت مها وهي توجه كلامها لسهام : بعد عام أو عامين ستكونين طالبة جامعية.. فهل ستبقين على حجابكِ هذا؟ اقصد هل ستبقين ملتزمة بالعباءة الزينبية.. داخل الحرم الجامعي ؟

أجابت سهام بكل ثقة : نعم بإذن الله.. لقد سألت اخي شهاب إن كان بإمكاني ذلك فأجابني انه معهم طالبات يلبسنها أثناء الدوام وها أنا أراهن أمامي.. صحيح أنهن قليلات لكني أدعو الله أن تزداد هذه الظاهرة.. فليس هناك حجاب استر للمرأة من العباءة الزينبية.

سألتها فدوى بفضول : وهل هذا رأي شهاب أيضا؟

هزت سهام رأسها وهي تقول : نعم طبعاً.. ألم تتناقشا في هذا الأمر سابقا؟

ارتبكت فدوى قليلاً ثم أجابت : لا.. لم نتناقش في هذه المسألة.. لكنني سأفتح معه الموضوع وان شجعني سأرتديها بإذن الله لأني أراها فعلاً كما تصفين (أفضل ستر وحجاب للمرأة).

انتهى الاحتفال ورجع شهاب مع أخواته إلى المنزل وقد كانت أقدامهن تؤذيهن من كثرة المشي في الجامعة.. قالت ختام وهي تتألم : لم يبقَ مكان في الجامعة إلا وأخذتنا فدوى إليه!!

ضحك شهاب وهو يقول : جزاها الله خيراً.. كنت محتاراً في أمركن حتى جاءت هي وخلصتني من هذه الحيرة!

قالت مرام بسعادة : ما أروع هذه الفتاة يا أخي.. ادعو الله ان تكون من نصيبك فلقد أحببناها كثيرا.

ابتسم شهاب وهو يقول : الحمد لله انها نالت اعجابكن.. وإن كان لي معها نصيب فأدعو الله أن ييسر أمر زواجي منها.

رفعت الأخوات الثلاثة أياديهن وهن يرددن بصوت واحد : آمين.. رب العالمين.

القلوب (13)

نظرة شهاب الخاصة عن العباءة ... ؟؟

في اليوم التالي وبعد ذلك الاحتفال الجامعي قالت فدوى لشهاب وهي تهم بالجلوس في مكانهما المعتاد:

- ما هو الانطباع الذي تركته انا في قلوب اخواتك؟ هل لي أن أعرف ماذا قلن عني عند عودتهن يوم أمس؟

قال شهاب وهو يحاول أن لا يتعدى حدوده في الوصف :

- لم يقلن عنك إلا كل خير.. لم تقصري معهن في شيء.. كان يوم أمس بالنسبة لهن من أجمل الأيام.

- الحمد لله وأنا أيضا ارتحت كثيراً برفقتهن.. لكن هناك امر لفتَ انتباهي واتمنى ان اتحدث فيهِ معك.

- خير ان شاء الله؟!

- العباءة الزينبية.. ما رأيك بها؟

- من أي ناحية؟ لم أفهم؟

- اقصد لماذا لم تشجعني على ارتدائها طوال هذه الفترة في حين انك شجعت اخواتك عليها؟

- إن لي نظرة خاصة في هذا الأمر.

- وما هي.. هل لي أن أعرف؟

- لو رأينا رجل الآن يرتدي العمامة سنشير إليه بأنه رجل دين وبأنه يلبس (عمامة رسول الله) صحيح؟

هزت فدوى رأسها وهي تردد : صحيح.

- ثم لو رأينا أن هذا الرجل يتصرف تصرفات بعيدة عن الدين فماذا يمكن أن نقول عنه حينها؟

- سنقول انه لم يحترم عمامة رسول الله!

- أحسنتِ وهكذا بالنسبة للمرأة التي تقرر أن تلبس العباءة الزينبية فحينها سيكون من واجبها أن تحترم تلك العباءة حتى قبل احترامها لنفسها، بالضبط كرجل الدين الذي عليه أن يحترم العمامة قبل أن يحترم نفسه لأن أي تصرف مُحرم أو مُثير للشُبهة سيجعل عمامة رسول الله في محل الاتهام من قبل ضعيفي الإيمان وما أكثرهم اليوم.. فهم لن يتهموا الرجل نفسه بل سيتهمون الرسول "صلى الله عليه

واله" والدين الذي أتى به الرسول بل سيتجرأوا حتى على الله تعالى بالكلام البذيء نتيجة تصرف صدر من بعض الرجال المحسوبين على أهل الدين!

فالمرأة أيضا إن لم تحترم العباءة وتصرفت اي تصرف خارج حدود الأدب والأخلاق سوف تشوه صورة النساء الطاهرات اللواتي ارتبطت هذه العباءة بإسمهن بل سيقوم الجهلة باتهام الدين والمذهب الذي تنتمي إليه تلك المرأة وسيتهمون كل المتدينات بأنهن يحملن أخلاق سيئة كأخلاق تلك المرأة المتلبسة بالدين!!

تساءلت فدوى بفضول :

- وأي تصرف يمكن أن تقوم به المرأة صاحبة العباءة فتشوه به صورة المتدينات برأيك؟

قال شهاب وقد أعجبه اهتمام فدوى بالموضوع :

- التي ترتدي العباءة وتملأ وجهها بالمكياج! والتي ترتدي العباءة وتتعطر ليشم عطرها كل من هب ودب، التي ترتدي العباءة وتمازح الرجال وتضحك بصوتٍ عال، التي ترتدي العباءة وتملأ أصابع يديها بأنواع الخواتم والمجوهرات!!

هذه بالنسبة لي لو تخلع العباءة أفضل لها ألف مرة من لبسها!! فهي وأمثالها ممن يتفاخرن ويتباهين أمام الجميع سواء بالجامعة أو الدوائر الحكومية أو أي مكان آخر بأنهن يرتدين العباءة الزينبية اتمنى ان أسألهن :وهل كانت زينب عليها السلام (صاحبة هذه العباءة) ترضى بوضع مساحيق الزينة على الوجه؟ أم هل كانت ترضى بوضع العطور والخروج من المنزل؟ ام هل كانت ترضى بممازحة الرجال والضحك معهم؟ حاشاها " عليها السلام" من كل هذا!

إنها وبّخَت يزيد أمام الملأ لمجرد انه ادخلهن المسجد الأموي وبدأ الرجال ينظرون إليهن.. حينها خاطبته بالقول (أمن العدل يا ابن الطلقاء ، تخديرك حرائرك وإمائك، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وآله قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن ..) لاحظي كيف تجعل سيدتنا العقيلة نظر الرجال لوجوه المؤمنات من الأمور التي تستلزم التقريع والتوبيخ ، فماذا ستقول اليوم وهي ترى الفتاة التي تلبس عبائتها هي بنفسها تجر الرجال إلى النظر إلى وجهها وتحاول جذب أنظارهم بالمكياج والعطور؟!

****

سألت فدوى مُربيتها سُمية في إحدى جلسات المسامرة بينهما : - خالتي هل تذكرين شيئاً عن والدتي عندما كانت طالبة جامعية؟

- نعم عزيزتي.. أتذكر الكثير!

- اتمنى ان تتكلمي لي عن حجابها.. كيف كان؟ ماذا كانت ترتدي في الجامعة؟ وهل كانت تضع على وجهها شيئاً من المكياج؟

- كانت والدتكِ تلبس الجبة الإسلامية ولا تضع المكياج البتّة.

- والعباءة الزينبية.. هل كانت تخلعها عندما تدخل الجامعة؟

- في أول أيامها لم تخلعها وبقت متمسكة بها إلى أن جاء قرار من الحكومة آنذاك بطرد كل طالبة أو استاذة ترتدي هذه العباءة!

- وماذا فعلت أمي حينها؟

- اتذكر انها بكت كثيراً لأنها كانت ترى في العباءة سترها وعفتها.. وبعد الضغوطات الكثيرة من الحكومة في وقتها قررت والدتكِ شراء " الجبة الاسلامية" فهي تعتبر حجاباً شرعياً أيضاً مع التزام الشروط الحقيقية للحجاب فيها.

- وما هي هذه الشروط؟ هل لكِ أن تخبريني بها؟

- أن لا تكون ضيقة بحيث تبرز مفاتن الجسم، وأن لا يكون لونها جذاباً ، وكذلك يجب أن تكون طويلة وساترة لكل أجزاء الجسم.

-هل تعلمين يا خالة أن هذه المواصفات صارت تبتعد شيئاً فشيئاً عن الجبة الموجودة في الأسواق هذه الأيام ؟

فهي اما ضيقة أو ذات ألوان زاهية أو قصيرة ومعها بنطال أو مزركشة بشتى أنواع الزينة والألوان!

قالت سمية بثقة : إذن الأفضل للانسانة المؤمنة لبس العباءة الزينبية وينتهي الأمر!

ثم أكملت وهي تستذكر الماضي المرير : بعد أن تخرجت والدتكِ من الجامعة صاروا يحاربون حتى من ترتدي الجبة واجبروا جميع الطالبات على ارتداء التنورة والقميص الضيقين بعد أن قاموا بتوزيعها على الطالبات جميعهن بحجة الزي الموحد!!

أما الآن يا عزيزتي فالمفروض اننا نعيش زمن الحرية في ارتداء الحجاب.. فلماذا لا تلتزم الفتاة المؤمنة بالحجاب الشرعي ولماذا لا تقتدي بالطاهرات من النساء أمثال الزهراء فاطمة وابنتها العقيلة زينب (عليهما السلام)؟!

قالت فدوى : كنت أرى سابقا طالبات في الجامعة معي يلبسن العباءة الزينبية ولم يشدني شيء إليهن.. ولكن قبل ايام وبعد أن جاء شهاب بأخواته إلى الجامعة لفت انتباهي عفتهن وحيائهن وكيف التزمن بالعباءة داخل الجامعة وكانت وجوههن تخلو من المكياج لكنها محاطة بهالة عجيبة من النور.. حتى أن بعض زميلاتي صرن يقارن بيني وبينهن بصفتي خطيبة اخوهن وزوجته المستقبلية!!

اتوقع أنني في العام القادم بإذن الله سأقوم بلبس العباءة مثلهن لكن..

قالت سمية والفرحة تغمرها : لكن ماذا يا حبيبتي؟ ما الذي يجعلك مترددة؟

- لا أتوقع بأنني سأستطيع ترك المكياج! فشهاب يقول ان التي ترتدي العباءة وتضع المكياج والعطور الأفضل لها أن تخلع العباءة!!

المشكلة أنني اعتدت أن أخرج وانا أضع القليل من المكياج بعد أن دخل والدي السجن.. أما قبل دخوله السجن فلقد كنت أضع الكثير منه كما تعرفين!

قالت سمية وهي تزرع الثقة بداخلها : ما دمت قد استطعت الإقلال منه.. فأنت قادرة على تركه نهائيا.

- ولكن كيف سأكون من غير مكياج!!

أخشى أن أبدو في نظر الطلاب غير جميلة!

ابتسمت سمية وهي تقول : وما يهمكِ رأي الطلاب غير الملتزمين؟ وأكيد أن الملتزمين منهم سيحترموك أشد الاحترام وسيرون فيكِ جمال آخر.. والأهم من كل هذا كيف ستكونين في نظر رب العزة.. حتماً ستكونين عند الله أجمل من الحور العين.. وسيفتخر بك حينها أمام ملائكته..لأنكِ قررتِ ترك معصيته والالتحاق بأهل طاعته.

في جلسة الأسبوع التالي أخبرت فدوى شهاب بما عزمت عليه من أمر لبس العباءة الزينبية في العام القادم ثم أردفت :

- ولكن يبقى أمر احتاج فيه إلى مساعدتك إن أمكن!

- تفضلي.. أنا بالخدمة.

- في عطلة نهاية السنة اتمنى ان تتحدث معي عن طريق الرسائل بخصوص ترك المكياج لأني أجد صعوبة كبيرة في ذلك.

قال وهو يشعر بفرحة خفية :

- سأقوم بواجبي والباقي على الله ثم ردد على مسامعها قوله تعالى "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.."

نظرت إليه فدوى بدهشة وهي غير مصدقة! لقد أعلن لها عن حبه من خلال آية قرآنية!!

اما هو وما أن رأى تلك النظرات التي رمقته بها فدوى حتى شعر بخطأه!!

لقد أعلن لها عن صدق مشاعره تجاهها من غير أن يقصد! قام من مكانه فما عاد بإمكانه البقاء.. فماذا يمكن أن يقول لها بعد تلك الزلة!!

اتجه إلى مصلى الجامعة توضأ وجلس يناجي الله تعالى بعينين باكيتين : إلهي وربي.. كن معي ولا تتركني، لقد تعبت يا الله، تعبت من محاربة نفسي، تعبت من محاولة السيطرة على كلماتي ومشاعري، تعبت من كل هذا الوضع.. لكني لم أتعب من الدعاء

سأبقى أدعوك لأن أبوابك مشرعة للداعين..

صار يردد دعاء صاحب الزمان عليه السلام في طلب التوفيق :

" اللَّهُمَّ ارزُقْنَا تَوْفِيقَ الطَّاعَةِ وَ بُعْدَ الْمَعْصِيَةِ ، وَ صِدقَ النِّيَّةِ وَ عِرفَانَ الْحُرْمَةِ ، وَ أَكْرِمْنَا بِالْهُدَى وَ الِاسْتِقَامَةِ ، وَ سَدِّدْ أَلْسِنَتَنَا بِالصَّوَابِ وَ الْحِكْمَةِ ، وَ امْلَأْ قُلُوبَنَا بِالْعِلْمِ وَ الْمَعْرِفَةِ ، وَ طَهِّر بُطُونَنَا مِنَ الْحَرَامِ وَ الشُّبْهَةِ ، وَ اكْفُفْ أَيْدِيَنَا عَنِ الظُّلْمِ وَ السِّرقَةِ ، وَ اغْضُضْ أَبْصَارَنَا عَنِ الْفُجُورِ وَ الْخِيَانَةِ..."

لم يستطع إتمام الدعاء من شدة الحزن، هوى إلى الأرض ساجداً باكياً ؛ بعد أن هدأ قليلاً قام فصلى ركعتين بنية طلب التوبة والمغفرة من الله، ثم اخرج مسبحته وصار يردد مع كل خرزة فيها : استغفر الله وأسأله التوبة .. استمر بالاستغفار إلى أن حان موعد المحاضرة التالية.

(14)

ما حال ذي القلب الحزين ؟!

مع اقتراب الامتحانات النهائية انشغل كل من شهاب وفدوى بالدراسة المكثفة التي أثمرت بالنجاح والتفوق لكليهما حتى في درس الأستاذ شادي كانا قد حصلا على أعلى الدرجات ومهما حاول أن يقتص منهما لم يُفلح!!

قالت إحدى الطالبات وهي تهنئ فدوى على تفوقها وتقديراتها العالية : الذي أعرفه انكِ كنتِ لا ترغبين بكلية الطب.. فكيف جئتِ بكل هذه التقديرات العالية؟!!

ابتسمت فدوى ولم تُعقب.

أجابت زميلة أخرى وهي تضحك : انه الحب يا صديقتي .. الحب يصنع المعجزات!!

وفي حديقة الجامعة حيث اللقاء الأخير والذي سيكون بعده فراق لمدة ثلاثة أشهر تقريباً .. قالت فدوى وكانت غالباً ما تفتتح هي الحديث :

- سنفترق لكن كلماتك سوف لن تُفارقني صحيح؟ اقصد نصائحك!

جاءها صوته صادقاً كما في كل مرة : بالتأكيد ستكون هناك نصيحة في كل ليلة بإذنه تعالى.

بدأت عطلة نهاية السنة وهذا هو اليوم الأول منها وقد بدأت فدوى ختمة ثانية للقرآن وكانت متلهفة جداً لكتاب الله بعد هذه الفترة المضنية من الدراسة والتعب.. انها بحاجة إلى أن تريح قلبها بذكر الله وهو القائل ((ألا بذكر الله تطمئن القلوب)) تذكرت إحدى رسائل شهاب عن القرآن حينما كتب لها :

عن الامام الصادق(عليه السلام)

" يُدعى بإبن آدم المؤمن للحساب فيتقدم القرآن أمامه في أحسن صورة فيقول : ياربّ أنا القرآن وهذا عبدك المؤمن قد كان يُتعب نفسه بتلاوتي ويُطيل ليله بترتيلي وتفيضُ عيناه اذا تهجّد،فأرضه كما أرضاني، فيقول العزيز الجبّار : عبدي ابسط يمينك، فيملأها من رضوان الله العزيز الجبّار ويملأ شماله من رحمة الله،ثم يُقال : هذه الجنّة مباحة لك فإقرأ واصعد فإذا قرأ آية صعد درجة "

ما أشوقها لتلك الجنة!

وما أجمل ما وصفها لها شهاب في إحدى رسائله حينما كتب :

المشهد عند باب الجنة..

أصوات الداخلين اختلطت مع

بعضها تحمد الله وتشكره على نعمائه!

تأمل ذلك المشهد عندما يفتح الباب..

(وسيقَ الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمرا)

أي جمال؟!

أي روعـــــة؟!

أي سعـــــادة؟!

أي رضـــــا ؟!

ما هي الدنيا مقابل تلك اللحظات؟!

أسأل الله أن يجمعني بكم في الجنة..

ويجعلنا ممن قال فيهم:

(وجوهٌ يومئذٍ مُسفرة ضاحكةً مستبشرة).

****

أما العطلة في بيت شهاب فبدأت بالعمل والمثابرة على تحصيل لقمة العيش، هو يخرج منذ الصباح الباكر إلى محل بيع الأقمشة حيث عمله مع الحاج فاضل وأخواته يعملن في المنزل على خياطة ما تأتي به النساء لهن من اقمشة وكذلك ما يرسله الحاج فاضل إليهن من قماش وفصالات مرغوبة لدى الزبائن..

كانت حياة الأخوة الأربعة عامرة بالعمل وبذكر الله.. الله الذي لم يتركهم رغم قسوة الزمن عليهم!

وفي المساء وبعد أن يتناولوا وجبة العشاء يبدأ الأخ وأخواته الثلاثة بالتسامر والتحدث بأهم ما واجهتهم اليوم من أحداث ومواقف مع الزبائن سواء في المحل أو في المنزل.. بعضها مواقف ذات عبرة وبعضها مضحكة يذكرونها للترفيه عن أنفسهم دون أن يتعدوا فيها حدود الله.. فلا غيبة ولا تجريح بأحد ولا سخرية أو استهزاء،، هكذا كانت أخلاق شهاب وأخواته.. قمة في الأدب والاحترام مع بعضهم ومع الآخرين.

اما فدوى فكانت تقضي ايامها ولياليها بين القرآن الكريم و روايات الشهيدة بنت الهدى (وهي سلسلة من القصص الرائعة والروايات الشبابية الهادفة التي أهداها إليها شهاب) وعندما كانت تتعب عيونها

من القراءة تخرج من غرفتها لتساعد مربيتها أو لتجلسان معا تتحدثان وتتناقشان في أمور عدة خاصة أن سمية كانت تحمل ثقافة دينية عالية ومعلومات قيمة عن الدين والحياة.

وفي كل ليلة كانت تصل لفدوى رسالة من شهاب تقوي عزيمتها ولتخبرها انه معها في طريق التوجه والتقرب إلى الله.. ومن أجمل ما كتبه لها في الليالي الأولى من العطلة هي هذه الكلمات التي اختارها لها من إحدى المواقع الالكترونية الجميلة :

(كوني قويّة ؛ صُلبة ؛ صامدة ؛ عالية العزيمة ؛ كبيرة في عين نفسك ، كُوني رحيمة رقيقة في الوقت نفسه ، كُوني امرأة لا تُنسى، وكأنك الأنثى الوحيدة التي يحتاجها هذا العالم ؛ الحياة لا تُصفّق للضعفاء ولا تنحني للبؤساء.. كوني كما يريدك صاحب الزمان).

فكتبت له وهي تشعر بقوة تأثير تلك الكلمات على كل كيانها :

حدثني أكثر عن صاحب الزمان وكيف يريدني أن أكون؟!

فجاءها الرد :

صاحب الزمان هو إمامنا الحي الذي يعيش معنا بكل كيانه.. يرانا لكن لا نراه.. وقد نراه فلا نعرفه!

شاء الله أن يحجبه لحكمة هو يعلمها سبحانه..

هو نفسه الحجة ابن الحسن العسكري.. انه إمامنا الثاني عشر والذي ننتظر ظهوره ليملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا..

وهو الذي يعترف بظهوره في آخر الزمان كل الفرق الإسلامية، بل كل الديانات على مختلف مذاهبهم تبشر بقدومه في آخر الزمان مع اختلاف المسميات لديهم..

أن من عظيم حظنا اننا نعيش في زمانه..

لأنه الإنسان الذي تمنى جميع الأنبياء والأوصياء والصالحين أن يعيشوا في زمانه.. لعلهم يتشرفون بنعمة خدمته!

فهذا إمامنا الصادق عليه السلام يقول عندما يذكر صاحب الزمان بحضرته ((لو ادركته لخدمته ايام حياتي))، عبارة قصيرة لكن بمعاني عظيمة!

إذ يوضح الامام الصادق لنا بأنه لو كان يعيش في آخر الزمان لاختار أن تكون كل ايام حياته هي في خدمة الإمام المهدي أرواحنا فداه..

من هنا فانه يقدم درساً لكل موالي ادرك حياة و فترة إمامة صاحب الزمان، مُحصلهُ انه ليس هنالك شيء يقربك الى الله اكثر من خدمة الإمام الحجة ، فهنيئاً لمن وفِق لخدمته، نسأل الله ان يوفقنا وإياكم لذلك.

****

كتبت فدوى وقد تفتّح ذهنها على الكثير من الحقائق بعد قراءتها لهذه الرسالة : وكيف يمكننا أن نخدم مولانا صاحب الزمان؟

فجاءها الرد من شهاب :

لا يمكن حصر خدمته عليه السلام في مجال أو صعيد واحد فكل المجالات والأصعدة يمكن أن توظف في خدمته! بشرط أن تصب جميعها في عمل الخير.. فكل عمل خير يمكن أن يقوم به الموالي من موقع عمله ووظيفته فسيكون خدمة لمولاه الإمام المهدي أرواحنا فداه.

وبما أن الناس في هذا الزمن هم رعية الإمام المهدي عليه السلام فإن أي خدمة نقوم بها لرعيته فهي تعتبر خدمة له عجل الله فرجه الشريف.. كمساعدة الفقراء ونصرة المظلومين والوقوف بوجه الظلم والفساد.

وأيضا من أهم الأعمال في زمن الغيبة هو الدعاء بتعجيل الفرج فقد أوصى "روحي فداه" شيعته في زمن غيبته الصغرى بالإكثار من الدعاء بقوله ((وأكثروا من الدعاء بتعجيل الفرج فإن في ذلك فرجكم)) .

كما أن تعريف الناس بإمام زمانهم هي من أهم الأعمال التي يمكن أن نخدمه بها "عليه السلام "من خلال نشر الأحاديث التي تؤكد على ولادته والدفاع عن حقيقة وجوده المقدس لأن هناك من يدعي بأن المهدي الموعود لم يولد بعد !!

كما نستطيع أن ندعو الناس إلى الالتفات إليه والدعاء له وتشويقهم للعيش في الدولة العادلة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بظهوره.

وأيضا هناك أعمال يومية واسبوعية يمكن أن يقوم بها الموالي لتزيد من ارتباطه بإمامه وتجعله من المنتظرين الحقيقين لطلته البهية منها قراءة دعاء العهد كل صباح بنية نصرته حين ظهوره، وكذلك قراءة دعاء الندبة كل يوم جمعة و زيارة آل ياسين والإكثار من دعاء الفرج " اللهم كن لوليك الحجة ابن الحسن.." في قنوت صلاتنا اليومية الواجبة والمستحبة وفي المحافل والمناسبات الدينية، والتصدق بالنيابة عن الإمام صاحب الأمر عليه السلام.. كل هذه وغيرها الكثير من الأعمال يمكن أن

يقوم بها الموالي ليتشرف بأن يكون اسمه ضمن قائمة أسماء خدام الإمام المهدي أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.

سألته في الرد على رسالته الأخيرة :

ولماذا جعل الله لخدمة صاحب الزمان كل هذا الشرف؟

فجاءها الجواب :

لأنه سيحقق حلم جميع الأنبياء والصالحين في قيام دولة عالمية عادلة بعد غيبة طويلة لا يعلم متى تنتهي ويكون فيها الإمام قد عانى الكثير الكثير وهو يرى بعينه الشريفة كل أنواع الظلم لرعيتهِ على يد الطواغيت والظالمين من غير أن يؤذن له بالانتقام منهم!!

وهذا موقف آخر لإمامنا الصادق عليه السلام حين وجده أصحابه يبكي بكاء الثكلى لغيبة الامام المهدي عجل الله فرجه وهو يقول((سيدي غيبتك نفت رقادي ،و ضيقت عليَّ مِهادي وابتزت مني راحة فؤادي...)) انه بهذه الكلمات الشريفة يعطينا درساً مثالياً يوضح فيه كل تكاليفنا تجاه مولانا صاحب الزمان!

فبالإضافة إلى خدمته الشريفة يجب علينا أن نواسيه في وحدته.. نخاطبه .. نعلن له عن حبنا وشوقنا الدائم له.. نخبره بأننا لم ولن ننساه.. وبأننا حتى وإن لم نره بأبصارنا.. لكننا رأيناه ببصيرتنا وعشقناه بكل جوارحنا..

إليكِ هذه الأشعار الجميلة وقد كتبتها فتاة موالية ونشرتها في إحدى الصفحات الالكترونية وهي تخاطب إمامنا الحجة عليه السلام :

مهما ضحكنا سيدي.. مهما تناسينا الحنين..

نبقى نردد في أسى.. ماحال ذي القلب الحزين؟

أتراهُ أكمل يومه بسعادةٍ .. أم في أنين؟

أتراهُ يسمع شكوتي؟ ماحالهُ طولَ السنين؟

أتراهُ يغفل عن بنيهِ؟ أتراهُ يجفو المُذنبين؟

لا وحق المرتضى حاشاه .. أقسم في يقين

قلبي يقول بأنهُ .. يدعو لنا في كل حين.

(15)

الراعي .. ساعي البريد.. الأمير!!

مرت الأيام والأسابيع وطال الفراق بين الإثنين..!

وفي إحدى المرات أرسلت فدوى رسالة لشهاب جاء فيها : لدينا اقمشة انا والخالة سمية ونتمنى أن تخيطها لنا الأخت سهام فهل يمكن أن تأتي لأخذنا إلى منزلكم لو سمحت.. لأنني لا أعرف العنوان بالضبط؟!

بعد إرسال الرسالة بخمس دقائق رنَّ جهاز هاتفها وكان رقم شهاب!!

يالسعادتها فهي مشتاقة لسماع صوته كثيراً.. لكنه كان يرفض مسألة المكالمات الهاتفية.. فما الذي حصل واتصل؟ لماذا لم يرد على رسالتها برسالة كما في كل مرة؟!

فتحت الخط وكاد قلبها ينقلع من مكانه من شدة الاضطراب.. فجاءها صوت سهام!!

- مرحبا حبيبتي فدوى..

- سهام! اهلاً.. اهلاً بالغالية!

- بخصوص مجيئكم إلينا سيأتي شهاب غداً لاصطحابكم.. ارجو ان تتهيئوا في الساعة الخامسة عصراً.

- حسناً حسناً .. أشكر لكِ لطفك عزيزتي .. وسلامي للجميع.

وفي تمام الساعة الخامسة عصراً كان شهاب يقف عند بابهم، خرجت هي اولاً وانتظرت خالتها سُمية التي تأخرت بعض الشيء..

قالت فدوى بفضول : لماذا لم ترد عليَّ برسالة يوم أمس؟

قال وهو يخفض رأسه : ألم نتفق ان تكون الرسائل نصائح وتوضيحات في أمور الدين لا أكثر!!

هنا خرجت الخالة سُمية وألقت التحية وأنطلقوا جميعاً إلى مقصدهم ، وفي منزل شهاب كانت الأخوات الثلاثة في أبهى حُلتهن وهُنَّ ينتظرنَ صديقتهنَ المحبوبة "فدوى" التي عبّرت عن فرحة اللقاء وهي تقول : يشهد ربي اني اشتقت إليكن كثيراً كما إنني أشعر بينكن وكأني بين أخواتي فعلاً .

أخرجت سمية ما في حقيبتها من اقمشة وجلسن جميعاً لاختيار الفصالات والموديلات..

كان شهاب جالساً في غرفته وقد اتصل بالحاج فاضل ليعتذر منه عن عدم استطاعته من المجيء .

ثم دخل المطبخ للتأكد من التحضيرات وبأن العشاء سيكون جاهزاً حسب الوقت المتفق عليه مع سهام.

ولما اكملن الحديث عن الأقمشة والفصالات والموعد المحدد لاستلام الملابس قالت فدوى : الآن يجب أن نستأذن سوف يحل الغروب!

وما أن سمعها شهاب حتى خرج من المطبخ وهو يقول : سيكون عشائكم عندنا الليلة وبعدها سأوصلكم إلى منزلكم متى ما أحببتم ذلك.

قالت سمية : ولكن لا نريد أن نشقَّ عليكم يا ولدي!

قال بصوته الحنون :

- ولكن اي شقاء يا خالة.. لقد حلَّت البركة في منزلنا بقدومكم.

شكرت سمية شهاب على حُسن كرمهِ وطلبت من ختام أن ترافقها لتتوضأ وتتهيأ لصلاتي المغرب والعشاء، بينما قامت فدوى مع سهام لتهيئة العشاء قائلة : احب ان أساعدكِ في تحضير الطعام.

رحبت سهام بطلبها واصطحبتها معها إلى المطبخ وهناك بدت الدهشة واضحة على سهام وهي تنظر إلى صحون الفاكهة والحلويات التي وضعت على طاولة المطبخ!!

تسائلت فدوى باهتمام : ولكن ما بكِ يا سهام؟ هل حصل شيء لهذه الأطباق؟ لماذا تطيلين النظر إليها مع هذه الدهشة؟

ضحكت سهام وهي تقول : لقد هيّأ شهاب كل شيء أثناء جلوسنا معك!

قالت فدوى وقد احمر وجهها من الخجل : نعم لقد رأيته يدخل إلى المطبخ ولم يخرج إلا عندما أردنا الذهاب!!

امسكتها سهام من يدها وهي تقول : انه يعاني أكثر مما تتصورين.. يتمنى لو يصبح حلم زواجكما حقيقة!

انظري إلى كل هذه الأطباق وأنواع الطعام! انه يتمنى أن يسعدكِ بأي طريقة..

قالت فدوى وهي تؤكد كلام سهام :

- لقد فعل الكثير لأجلي.. مواقفه النبيلة في الجامعة وشهامته التي قل نظيرها هذه الأيام.. نصائحه التي صارت تنير لي دربي.. ماذا اتذكر منه وماذا انسى؟!

وهنا دخل شهاب المطبخ وخاطب اخته بالقول : اتركا الحديث الآن وهيئا لنا المائدة!

قالت سهام بابتسامة لها معنى : وهل تركت لنا شيئاً لنهيئه؟

ابتسم شهاب وحانت منه التفاتة إلى حيث تجلس فدوى.. قال بأدب : ما أخبار الوالد.. وهل تذهبين لزيارته؟

ردت فدوى : نعم كل شهر مرة.. انه بخير.

تعمدت سهام أن تخرج من المطبخ قليلا، فاستغل شهاب خروجها بأن وجه عتاباً لفدوى وقد بدى حزيناً بعض الشيء : كنت أتوقع انكِ ستخرجين من منزلكم مرتدية العباءة الزينبية..!

طأطأت برأسها أرضاً وهي تقول : لن البسها إلا حينما اترك المكياج!

أراد شهاب أن يرفع رأسه ليرى هل فعلاً انها ما زالت تضع المكياج لكنه لم يجد الجرأة لينظر إليها فقال:

- وكأنكِ تريدين ان تذكريني بوعدي لكِ عن تقديم النصائح الخاصة بهذا الشأن؟

قالت بتهكّم :

- وكأنك تريد القول بأنك نسيت وعدك ذاك؟!

قال وهو يبتسم من محاكاتها لطريقته في الكلام :

- لا ابداً لم أنسَ.. لكنكِ لم تتركي لي مجال لاختيار النصائح! فدائماً تجدين سؤالاً يجب أن تطرحيهِ بعد كل رسالة مني ثم تنتظري الرد عليه!

ابتسمت وهي تقول : فعلاً .. كلامك عين الصواب من الآن وصاعداً سألتزم الصمت لتبقى انت من تختار النصائح.. انت وحدك!

هنا نظر إليها شهاب من غير إرادته، فلقد توقع انها انزعجت من كلامه فأراد أن يتأكد.. ولما رأى ابتسامتها الملائكية.. خفض رأسه وهو يقول : الحمد لله ظننتك انزعجتي من كلامي!

قالت وهي تتمنى أن يطول الحديث : بالعكس أنت بالنسبة لي الآن " المرشد الروحي" الذي يجب ان اطيع له كل أمر .

استأذن منها فلقد صارت كلماتها عذبة بعض الشيء وهذا ما لا يعجبه حالياً..!

نادى على أخواتهِ الثلاثة ليقمن بواجب الضيافة على أتم وجه وذهب هو ليتوضأ بعد أن سمع صوت الأذان.

قامت فدوى للصلاة أيضاً هي والأخوات الثلاثة.. وبعد أن أكمل الجميع أداء هذه الفريضة تم وضع مائدة العشاء وقد كان فيها كل ما لذَّ وطاب من الطعام فأكلوا وهم يتبادلون الأحاديث الجميلة.. وكانت تلك الليلة من اسعد الليالي بالنسبة للجميع.

وقف شهاب في الثلث الأخير من الليل ليؤدي "صلاة الليل" فهو لم يتركها منذ أن وصاه بها ذلك الشيخ الوقور الذي قابله في الصحن العلوي الشريف..

بعد أن أكمل صلاته صار يقرأ دعاء الحزين بكل خشوع ودموعه تجري انهارا على خديه وهو يردد :

" اناجيك يا موجوداً في كل مكان لعلك تسمع ندائي، فقد عظم جرمي وقل حيائي.. "!

خنقته العبرة وهو يتخيل نفسه بأنه سيبقى طوال عمره في هذه الحسرة وهذا الهم الكبير وهذه الحرب مع هوى النفس والشيطان..

وبعد أن أكمل دعاء الحزين بصعوبة توجه إلى الله بكل كيانه وهو يردد (إلهي ان كان عمري مرتعا للشيطان فخذني إليك)!

بينما هو ساجد يدعو الله ويتوسل إليه.. رأت فدوى في منامها رؤيا غريبة!

لقد كانت وسط ظلام دامس وفجأة سطع نور قوي من بعيد.. توجهت لمصدر ذلك النور فإذا به شاب يصلي وتحيط بوجهه هالة عجيبة..

بقت واقفة إلى أن اكمل الشاب صلاته فالتفت إليها.. لم تميز ملامح وجهه من شدة النور الذي يتلألأ منه، إلا أنها ميزت ملابسه.. انه يرتدي ملابس الأمراء.. هل هو نفسه الراعي وهل هو نفسه ساعي البريد!!

سألته بدهشة :هل انت أمير من الأمراء؟

قال وقد بدى صوته ليس غريبا عنها : لست إلا عبداً لله!

- ولكن ملابسك تدل على انك أمير!

ثم أردفت : لقد رأيتك سابقاً في أحلام اليقظة.. وفي نفس هذه الملابس لكنك كنت تملك خرافاً ..!

الستَ ذلك الراعي؟ ثم ألم تطرق باب أحلامي مرة أخرى بصفتك ساعي بريد وقد كانت بيدك رسالة لي؟

قال وهو يبدو لها مبتسماً بعض الشيء : اتيتك بصورة راعي لأنني مسؤول عن بعض الرعية.. لقد أوكل الله لي مهمة هدايتهم (ودخل في روعها انه يقصدها هي) ، ثم اتيتكِ بصورة ساعي البريد لأني احمل رسالة من " الله " إليكِ.

أشار إلى سجادة كانت خلفه وقد نُسِجت خيوطها من النور، قال لها بصوتٍ شجي : هيا قفي خلفي لأعلمكِ كيف تصلي صلاة الليل!

وقبل أن تتجه إليه استيقظت من ذلك المنام العجيب وهي تردد : شهاب.. الأمير.. صلاة الليل!!

نهضت وقد تأكدت ان كل ما شاهدته كان في عالم الرؤيا وبأن الأمير (الراعي وساعي البريد) ما هو إلا شهاب.. صحيح انها لم تميز ملامح وجهه لشدة النور الذي كان يحيط به لكنها متأكدة من ان صوته كان صوت شهاب!!

قالت وهي تقوم من فراشها : خير اللهم اجعله خير!!

في هذه الأثناء وصلتها رسالة من شهاب، فتحت الرسالة بيدين مرتجفتين فوجدته قد كتب لها :

(إن كنتم تريدون التقرب إلى الله بكل كيانكم ووجودكم فعليكم بصلاة الليل)!

كتبت إليه ودموعها تتلألأ في عينيها : سأكون ممتنة لكم إن علمتموني كيف أُصليها ؟!

(16)

الرسائل الأربعة ..

نهضت وقد تأكدت ان كل ما شاهدته كان في عالم الرؤيا وبأن الأمير (الراعي وساعي البريد) ما هو إلا شهاب.. صحيح انها لم تميز ملامح وجهه لشدة النور الذي كان يحيط به لكنها متأكدة من ان صوته كان صوت شهاب!!

قالت وهي تقوم من فراشها : خير اللهم اجعله خير!!

في هذه الأثناء وصلتها رسالة من شهاب، فتحت الرسالة بيدين مرتجفتين فوجدته قد كتب لها :

(إن كنتم تريدون التقرب إلى الله بكل كيانكم ووجودكم فعليكم بصلاة الليل)!

كتبت إليه ودموعها تتلألأ في عينيها : سأكون ممتنة لكم إن علمتموني كيف أصليها؟!

فجاءها الرد :

صلاة الليل 11 ركعة، يستطيع المبتدئ أن يصلي الثلاث ركعات الأخيرة فقط ففضلها أعظم من البقية إلى أن يعتاد عليها فيصليها كاملة.

وقتها بعد منتصف الليل إلى أذان الفجر، ووقت الفضيلة لها هو الثلث الأخير من الليل ـ أي كلما كان وقتها أقرب لصلاة الفجر كان ثوابها أعظم ـ والركعات الثلاث هي : ركعتي الشفع وركعة الوتر.

ركعتي الشفع // تكون النية كالتالي : أنوي أن اصلي ركعتي الشفع من صلاة الليل قربة وطاعة إلى الله تعالى.. ثم يقرأ بالركعة الأولى سورة الفاتحة وسورة الناس، وفي الثانية الفاتحة والفلق .. ولا يوجد قنوت في هاتين الركعتين ثم يجلس ليتشهد ويسلم وتنتهي هنا ركعتي الشفع.

ممكن أن يفصل بينها وبين ركعة الوتر ببعض الأذكار كتسبيحة الزهراء عليها السلام أو الصلاة على محمد وآل محمد 100 مرة أو قد يقوم مباشرة لركعة الوتر.

ركعة الوتر // وهي ركعة واحدة تكون النية فيها كالتالي : أنوي أن اصلي ركعة الوتر من صلاة الليل قربة وطاعة إلى الله تعالى.. ويقرأ فيها : الفاتحة مرة واحدة ، الإخلاص 3 مرات، المعوذتين (الفلق والناس) مرة مرة، ثم يرفع يده للقنوت والدعاء.. هنا يحتاج بعض التركيز للمبتدئين : يقرأ بالقنوت بعض الأدعية القصار والأفضل دعاء الفرج (اللهم كن لوليك....) أو أي دعاء يختاره ثم يقول 7 مرات (هذا مقام العائذ بك من النار) و 70 مرة (استغفر الله) ثم يستغفر ل 40 مؤمن على سواء كانوا من الأحياء أو الأموات ، و يقول 300 مرة (العفو)..يمكن أن يحسب المصلي هذه الأرقام وهو في حالة القنوت من خلال أصابع يده فكل اصبع مقسم إلى ثلاث أقسام كما هو معروف..

يستغل المؤمن هذه الوقفة العظيمة ويدعو لنفسه وللآخرين بأي شيء يريده فإن الدعاء فيها مستجاب إن كانت الاستجابة من مصلحته (والله يعلم بذلك ولسنا نحن) وإن كان الدعاء والطلب ليس فيه معصية أو منكر والعياذ بالله.

بعد القنوت يجلس للتشهد والتسليم وتنتهي الصلاة.

وكان إمامنا السجاد " عليه السلام "يقرأ دعاء الحزين بعد هذه الصلاة..

أن لصلاة الليل فضل كبير لا يعد ولا يحصى وإننا لنرى آثار استجابة الدعاء فيها بأسرع مما نتصور!!

كما يرى الإنسان المؤمن الكثير من التوفيقات وزيادة في الرزق وحل المشاكل المستعصية.. كله ببركة استمراره على تأدية هذه الصلاة العظيمة التي ما تركها رسول الله ولا أئمتنا ابداً.. وأخيراً فإن من أهم ثمار هذه الصلاة غفران الذنوب فتذكر لنا الأحاديث الشريفة بأن الله يخاطب ملائكته ساعة وقوف العبد لأداء هذه الصلاة : "انظروا إلى عبدي، فقد تخلى بي في جوف الليل المظلم، والبطّالون لاهون، والغافلون نيّام، أشهدوا أني غفرتُ لهُ".

****

استمر كل من شهاب وفدوى على أداء صلاة الليل وقد التزمت بها فدوى أشد الالتزام بعد تلك الرؤيا العجيبة.. كما أن لتلك الرؤيا أثرها أيضا في تغيير نظرتها عن شهاب، فلقد كانت سابقاً تنظر إليه كفارس أحلامها ومرشدها في الحياة، اما اليوم فهو بالنسبة لها " الأب والأستاذ " الذي أرسله الله اليها فصارت تتعلم منه كل صغيرة وكبيرة عن دينها الحبيب..

لقد قررت أخيراً ترك المكياج بعد أن أرسل لها الكثير من الرسائل بهذا الخصوص ومن أبرز تلك الرسائل وأكثرها تأثيراً عليها هي هذه الرسائل الأربعة :

الرسالة الأولى // لأجل أمي وأبي !

تقول احدى الفتيات :

عندما أرى فتاة تبرجت و بالغت في التزيين أنظر لوالديها و اتذكر قول الله تعالى " وقفوهم إنهم مسؤولون"..

فأزداد حياءً و حشمةً كي لا يسأل الله أمي وأبي يوم الحساب.

الرسالة الثانية //

لازلتُ أحاول أن أفهم ماذا رأى موسى -عليه السلام- من فتاة مَديَن؛ ليُنفق عشر سنين من عُمرهِ مَهراً لها..!

فوجدتُ الجواب في قوله تعالى:

(تمشي على استحياء) .

لم يصف الله ...

طولها ولا شكلها

بل وصف أغلى ما وجد فيها وهو الحياء!

الرسالة الثالثة //

ضعي الغرور والآمال الشيطانية الكاذبة جانباً...وجدّي في العمل وتهذيب نفسك وتربيتها فإن الرحيل قريب جداً...وكل يوم يمر وأنتِ غافلة يجعلكِ متأخرة .

الرسالة الرابعة // المؤمن ينظر إلى المرأة المتبرجة نظرة إشمئزاز.. لأنها وضعت آيات سورة النور تحت قدميها (وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) النور - 31 وهي مقولة لفضيلة الشيخ حبيب الكاظمي.

هذه الرسالة أثرت فيها أكثر من سابقاتها.. فهل هي فعلاً تضع أيات القرآن تحت قدميها عندما تضع المكياج؟ هذا ما لا ترضاه لنفسها ابداً!!

بدأت بتحليل الأمر في البداية : يقول تعالى في سورة النور (وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) فهل المكياج زينة؟

لم تفكر في المسألة طويلاً.. قالت وقد توضح لديها الأمر : الأسم الآخر للمكياج والذي يتداوله الجميع هو (مساحيق الزينة والتجميل).. الأمر واضح ولا يحتاج إلى تفكير!!

عادت للتساؤل : ولكن لماذا لا يريد الله للمرأة أن تبدي زينتها للرجال؟

كتبت هذا السؤال في رسالة وأرسلتها لشهاب فلم تنتظر طويلا حتى جاءها الرد :

هل ترين اللؤلوة التي في البحر كيف يحفظها الله داخل الصدفة ليحافظ عليها من الحيوانات البحرية المفترسة ومن أهوال البحر ومخاطره؟ لو لم تكن ثمينة ولها قيمتها ما وضعها الله داخل هذا الصندوق القوي الذي لا يمكن كسره بسهولة!!

فالمرأة هي اللؤلؤة، والحجاب هو الصدفة!

وكلما كانت المرأة محتشمة كلما كانت بعيدة عن عيون الحيوانات البشرية!!

وكلما زادت في تبرجها وعريها كلما كانت فريسة سهلة لأصحاب الغرائز الحيوانية.

فالذي خلقها وهي بهذه الفتنة والجمال يريد أن يحافظ عليها من التحرشات اللاأخلاقية والسلوكيات القذرة لأصحاب النفوس الضعيفة ففرض عليها الحجاب، لتسير بين باقي البشر بانسابنتها وليس بإنوثتها!!

وعلى المرأة أن تظهر أنوثتها الحقيقية لزوجها لا غير .. أما تلك التي تعرض نفسها للجميع فهي كالحلوى التي اجتمع عليها الذباب ونظر إليها الجميع بدون استثناء وقد يدوس عليها البعض ولا يبالي!

صارت زيارات فدوى لمنزل شهاب تتكرر لكن من غير أن يدري!!

كانت تذهب مع مربيتها لغرض الخياطة أو الزيارة بحكم صداقتها للأخوات الثلاث، وكانت تختار فدوى الأوقات التي يكون فيها شهاب في العمل حتى لا تسبب له أي احراج.

وفي إحدى المرات التي كانت فيها فدوى في زيارة لأخواته صادف مجيئه إلى المنزل مبكراً جداً وعلى غير عادته فتفاجأت فدوى وكذلك أخواته بقدومه!

وما أن دخل وشاهد فدوى جالسة حتى القى التحية وأسرع إلى غرفته.. ذهبت إليه سهام لتستطلع خبر عودته المبكرة فكان رده : أرسلني الحاج فاضل لأجلب له ما عندكن من ملابس تم خياطتها.

قالت سهام : حسناً سأجلبها لك.. ولكن من الأفضل أن تجلس قليلاً مع فدوى والخالة سمية فليس من اللائق أن لا تسألهما عن أخبارهما..!

هز شهاب رأسه وهو يقوم من مكانه ويقول : حسناً.. لكن لا استطيع التأخر.. جهزي لي الملابس بسرعة.

خرج شهاب من غرفته ورأى أن فدوى وخالتها تستعدان للخروج أيضا.. ولقد كانت فرحته لا توصف وهو يرى فدوى ترتدي العباءة الزينبية وقد خلا وجهها من المكياج تماماً!!

رافقهما إلى الشارع الرئيسي وفي الطريق لم يتكلم أيا منهما بكلمة واحدة!

استأجر لهما سيارة تاكسي لتوصلهما إلى حيث منزلهما، وبقى هو واقفاً ينظر إلى السيارة إلى أن غابت عن ناظريه.

وما أن دخلت فدوى إلى الشقة حتى اتجهت إلى غرفتها مسرعة وصارت تنظر إلى نفسها في المرآة.. حجابها وعباءتها.. وجهها الخالي من المكياج..!

فكرت قليلا : ماذا لو أن شكلي الجديد لم يعجب شهاب؟

أخشى أنني صرت أبدو ـ وأنا من غير مكياج ـ غير جميلة في نظره!

وهنا دخلت سمية ووجدتها ما تزال ترتدي العباءة..!

قالت بتعجب : إلى الآن لم تخلعي عبائتكِ؟!

ارتبكت فدوى قليلاً.. خلعتها وهي تقول : سأصدقك القول يا خالة.. إنني أخشى أن المحبة التي يكُنّها لي شهاب ستقلُّ في قلبه لأني أبدو شاحبة قليلاً ووجهي ليس فيه بريق السابق!!

ضحكت سمية وهي تجلس على السرير بجانب فدوى وتقول : لا أظن أن شهاب احب وجهكِ الجميل أو منظركِ الفاتن.. حتى يأتي الآن ليقلل من هذا الحب مجرد عدم وضعكِ لمساحيق التجميل!

انه احب روحكِ الطيبة وإيمانكِ الصادق.. أحب عشقكِ للتعلم وفهم كل ما هو صحيح.. أحب طاعتكِ لله ومحاولاتكِ الدائمة لترك المعاصي.. بالعكس يا صغيرتي انا متأكدة بأن فرحة شهاب اليوم وهو يراكِ بهذا المنظر تفوق اي فرحة في قلبه!

قالت فدوى وهي تتطلع إلى السماء من شباك غرفتها : إن أكثر ما أتمناه الآن هو أن يكون ربي راضٍ عني .. فهو عندي أهم من شهاب بكثير.

قالت سمية : أنتِ الآن في نظر رب العزة فتاة مؤمنة بمعنى الكلمة لأن إيمانكِ الباطني صار ينعكس على ظاهركِ وهذا هو المطلوب، بأن يترجم المرء أقواله إلى أفعال حقيقية ولا يبقى إيمانه مجرد قول او لقلقة لسان!!

في تلك الليلة وقفت فدوى لتؤدي صلاة الليل وبعد أن انتهت سجدت لله تعالى شكراً على ما وفقها من ترك المعصية.. بكت وهي تستشعر محبة الله وتوفيقه لها.. قرأت دعاء الحزين، ثم صارت تردد كلمات إمامنا السجاد عليه السلام وهو يخاطب الله تعالى في مناجاة المحبين ..

"إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا "؟!

(17)

وتمضي الأعوام ...

كانت فدوى في هذه الفترة كثيرة التفكير بمصيرها مع شهاب..

ماذا لو لم يوافق والدها على الارتباط به بعد التخرج.. ماذا لو قرر شهاب بنفسه إنهاء هذه الخطبة أو الخطة!

فرشت سجادة الصلاة وصارت تتوسل إلى الله أن يطفئ ذلك اللهيب المستعر في داخلها.. وأن يُبعِد عنها تلك الوساوس القاتلة.

وفي المساء كتبت لشهاب تطلب نصيحته : القلق من المجهول سيقتلني! هاتِ ما عندك من نصيحة لي في هذه المسألة.. جزاكم الله خيرا.

بعد أقل من ربع ساعة جاءت النصيحة من شهاب كتب فيها :

قد لا تشعر بلُطف الله حالاً ...

لكنك لو عدتَ عاماً.. اثنين.. وثلاثة ستجد أثر عونهِ واضحاً في حياتك!

كيف تخلصت من تلك المشكلة ؟ كيف جبر كسرك ؟! كيف تخطيت مرحلة صعبة ! في حينها كنت تُردد لا يمكنني تخطيها !

كيف قضت المراحل الصعبة في حياتك حين كنت تظنها لن تنقضي !

ما أنت فيه من القلق الآن سيصبح في خبر كان أيضا..

وسترى أثر عونهِ واضحاً في المستقبل عندما ينزاح عن قلبك غشاء القلق والخوف مما أنت فيه ثق به فقط وتوكل عليه.

بعد هذه الكلمات سجدت لله وهي تقول : إلهي.. كل ما انا فيه اليوم من احتشام وطاعة ما هو إلا بسبب لطفك بي وعطفك عليَّ، فلقد سخرت لي أحد عبادك الصالحين لينتشلني من ظلمات الغي ويرفعني إلى سماء الطاعة.. إلهي فأتم فضلك عليَّ ولطفك بي واجعل هذا الإنسان الصالح رفيقاً دائماً لي ومؤنساً وشريكاً لحياتي .

****

مرَّ عامان على التحاق فدوى وشهاب بكلية الطب وها هما في المرحلة الثالثة وقد التحقت بهما سهام أيضاً!

وها هو شهاب يعطيها في يومها الأول بعض الوصايا التي يتمنى أن تلتزم بها.. قال لها وهو يتجه بها إلى قاعة المحاضرات الخاصة بالمرحلة الأولى :

- اختي الحبيبة .. انا لديَّ كامل الثقة بكِ.. لكن هناك ما يجب أن تعلميهِ وهو أن الإنسان مهما كان يعيش في بيئة جيدة وخاصة الفتاة حتى وإن كانت تربيتها تربية دينية إلا أن هناك ما سيؤثر عليها في الجامعة ألا وهي صديقة السوء فاحذريها.. ستجدين من تحاول أن تقنعكِ بخلع العباءة لأنها تعيق دراستكِ فلا تسمعيها، وستجدين من تحاول أن تقنعكِ بوضع القليل من المكياج فلا تنصتي لها ووو...

وتذكري بأن (الصاحب.. ساحب) أما يسحبك معه إلى الخير، وإما يسحبك معه إلى الشر والعياذ بالله.

كما أرجو أن تجعلي اختياركِ للصديقة على أساس التزامها بأوامر الله من الحجاب وعدم الاختلاط أو التبرج ولتكن لك نعم الانسانة المرشدة والناصحة بحيث ما أن ترى منك اي خطأ أو معصية لا سمح الله حتى توجهك إلى تركها ولتكن هذه المقولة الرائعة نصب عينيك :

" إختر صحبة تخجل أنْ تفعل بينهم ذنباً، وحذارِ من صحبة تخجل أن تفعل بينهم طاعة "!

وأخيراً فاعلمي أن" خير الأصحاب من أحبك في الله، وذكرك بالله، وخوفك من غضب الله، ورغبك في لقاء الله ".

أخذت سهام بنصائح أخيها الأكبر وصارت حذرة من صديقات السوء و من كل فتاة تحاول أن توقع بها أو تجرها إلى المعاصي، وما أكثر هذه المعاصي في مجتمع وبيئة واسعة كالجامعة!!

****

صارت اللقاءات بين شهاب وفدوى أكثر فائدة ومنفعة بعد أن التحقت بهما سهام، فكان الاثنان لا يؤسسان للقاء أسبوعي بينهما إلا بعد أن يتأكدا أن سهام لديها استراحة في ذلك الوقت حتى تحضر معهما نقاشاتهما الهادفة وحتى تكون جلستهما أكثر شرعية وتقرباً إلى الله.

وفي إحدى المرات تأخر شهاب عن الحضور فاستغلت فدوى ذلك بأن وجهت سؤالها لسهام :

- غاليتي سهام.. هناك سؤال طالما طرق باب أفكاري وكنت أتردد في توجيهه لشهاب.. فهل بإمكانك الإجابة عليه؟

- ما هو عزيزتي.. هاته!

لقد تركتكم امكم ورحلت مذ كنتم صغاراً وبعدها بعام واحد التحق والدكم بالرفيق الأعلى.. سؤالي من أين أتيتم انتم الأخوة الأربعة بكل هذه الثقافة والالتزام الديني؟!

قالت سهام وقد بدأت تسترجع صور الماضي عندما كانت بعمر تسع سنوات بالتحديد!!

ـ لقد أوصى ابي صديقهُ الحاج فاضل علينا قبل أن يرحل إذ كان صديقه المقرب، والحاج فاضل هذا ليس له أطفال.. لقد كانت زوجته عاقراً.. أتذكر عندما أوصاه ابي علينا وكنت جالسة عند رأسه ابكي، قال الحاج فاضل حينها : لا توصي حريص يا أبا شهاب أولادك بمنزلة أولادي الذين حُرِمتُ منهم!!

سوف لن اتركهم وسيبقون في رعايتي إلى آخر لحظة في حياتي.

وفعلاً وكما وعد الحاج فاضل ابي فلقد كان لنا نعم الراعي والمحافظ على الأمانة.. انه انسان مؤمن وزوجته كذلك.. لقد كانت تأتي لزيارتنا دائماً وتُلبي لنا احتياجاتنا بالأخص نحن البنات، اما هو فلقد جعل اخي يعمل معه بأجر يومي جيد جداً ، كما كان يعطيه أجراً شهرياً عند قراءته لأحد الكتب الدينية!

تساءلت فدوى بدهشة : وكيف ذلك لم أفهم؟!

ـ لقد كانت عند الحاج فاضل في المنزل مكتبة كبيرة فيها مختلف الكتب الدينية والعلمية وحتى كتب الأدب والشعر..

فكان يقضي شهاب أوقات فراغه سواء في المحل او في المنزل في مطالعة الكتاب الذي يعطيه اياه الحاج ثم في نهاية كل شهر يعمل له اختبار للتأكد من أنه قد قرأ الكتاب وفهم مضمونه!

وكلما كان شهاب يأتي إلى المنزل نهاية الشهر وهو مُحمَّل بالهدايا لنا حينها نعرف بأنه قد نجح بالاختبار واستلم أجره الشهري!!

إلى أن بدأت الثقافة الدينية وكذلك الثقافة العامة تتوسع لدى اخي وكان في أيام العطل يجمعنا نحن أخواته ويوضح لنا أمور دينية وثقافية كانت خافية علينا.. ثم بدأ يجمع النقود ليشتري بها كتب جديدة قد تكون غير متوفرة في مكتبة الحاج فلقد أصبح شهاب كثير الشغف بالقراءة والمطالعة!

هذا في أيام العطل أما في أوقات المدرسة فلم نكن نقرأ غير مناهجنا المدرسية إذ كان الحاج يشجعنا إن نحن استلمنا نتائجنا وكنا من الأوائل فسيرسل إلينا حينها الهدايا الرائعة.. وفعلاً كان لهذا الأسلوب تأثيره الواضح على مستوياتنا الدراسية فكنا نأتي انا واخوتي بالدرجات العالية وكان هو يستمر بإغداقنا بالكتب والهدايا الرائعة!

قالت فدوى وهي تمسح دموعها :

ـ سبحان الله! كل هذا بلطف من الله سبحانه وتعالى إذ سخر لكم الحاج فاضل وزوجته بعد أن أدارت لكم الدنيا ظهرها!!

قالت سهام وقد نزلت دموعها هي الأخرى : أن المؤمن مبتلى ياعزيزتي.. وكل انسان له ابتلاء قد يختلف نوعاً ما عن غيره.. فالذي يصبر ويتقي سيكون الله معه ولن يتركه.. فالمصائب والابتلاءات دائرة في بني آدم لكن هناك من يخرج منها وهو (موزور) محمل بالأوزار والآثام لقلة صبره وتحمله، وهناك من يخرج منها وهو (مأجور) على إيمانه وصبره وتقواه.

****

مضت الأعوام وها هو شهاب يتخرج هو وزميلته فدوى من كلية الطب بأعلى الدرجات..

سيزور اليوم والدها في السجن ويكرر طلبه بخصوص طلب يدها، تمت الزيارة ولكن ما ادهشه فيها انه قد وجد والد فدوى في حالة يُرثى لها.. كان مريضاً ولا يقوى على الحركة!

دخل شهاب بصفتهِ طبيب جاء لزيارة السجناء بموافقة دائرة الصحة ، ولما رأى والد فدوى في حالتهِ تلك قرر أن يكون هو الطبيب المشرف على حالته.. وقد تعاونت إدارة السجن معه حيث أوصاهم أن يرسلوا في طلبه كلما احتاج السجناء إلى من يعالجهم ويشرف على حالاتهم الصحية.

لم يكن والد فدوى هو السجين الوحيد الذي أصيب بالأمراض المختلفة بل كان هناك الكثير غيره، وأكثرهم من كبار السن وجميعهم قد تبرع الدكتور شهاب في متابعة حالتهم..

عاد إلى البيت وقد أظلمت الدنيا في عينيه، جاءته سهام لتخبره بأن فدوى اتصلت بهاتفها الشخصي أكثر من مرة لتعرف نتيجة الزيارة!

قال لها شهاب وهو يشعر بالإحباط : قولي لها أنني لم أستطع مفاتحة والدها بالموضوع بعد أن رأيته شديد التعب وقد أثر السجن على حالته النفسية!

بدأت زيارات الدكتور شهاب تتكرر للسجن في كل شهر مرة أو مرتين، ولم يكن والد فدوى يعرفه!

إذ أنهما التقيا مرة واحدة قبل ست سنوات! كان شهاب يبدو مختلفا عن اللقاء الأول.. انه الآن نحيل بعض الشيء وشعره صار أخف من السابق كما وقد أضافت عليه النظارات الطبية وقاراً أكثر من ذي قبل.

قال له والدها في إحدى المرات : لا أعرف أين التقيتُ بك يا دكتور؟

ضحك شهاب وهو يقول : في هذه الدنيا الواسعة!!

- وكأني اعرفك؟

- اترك التفكير بهذا الأمر يا عم .. الشيء المهم الآن هو صحتك!

- وماذا افعل بالصحة يا دكتور.. لقد ذهبت سنين حياتي هنا في هذا السجن البغيض.. ولم يبق من العمر إلا القليل!

- إن الدنيا يا عم بالنسبة للمؤمن هي كالسجن الكبير.. ولن يتخلص منها إلا حين عروجه للآخرة.

فلا تتوقع أن الذين هم في خارج السجن الآن يتمتعون بالراحة والسكينة!! ان لكل شخص بلاء معين.. فلم تخلق هذه الدنيا للراحة.. لأن راحة الانسان الحقيقية تنتظره هناك.. في الآخرة حيث النعيم المقيم، أما هذه ا لابتلاءات فإنها تجعله يقترب أكثر من الله من خلال صبره وقوة إيمانه.

قال السجين وهو ينظر مباشرة إلى عيني الطبيب : ما أجمل كلامك يا دكتور! أكمل أن سمحت.

ضحك شهاب وهو يقول : لا أريد أن اصدع رأسك بنصائحي يا عم!

- لا يا ولدي بالعكس.. نصائحك تنزل على صدري كالثلج الذي يذيب النار.. نار الذنوب والمعاصي!

ثم أردف وقد تلألأت الدموع في عينيه : هل يمكن للإنسان أن يتوب يا ولدي حتى لو كانت التوبة في نهاية عمره؟

قال شهاب وقد آلمته دموع ذلك الإنسان المجرم :

- أن الله يغفر الذنوب جميعاً .. إلا أن يُشرك به!

ثم اكمل وهو يمسك بتلك اليدين النحيلتين : انك مؤمن بالله ونادم على حياتك الماضية.. فلماذا لا يتوب الله عليك؟ ألم تسمع قوله تعالى (أن الله يحب التوابين)؟! يعني هذا إن الله لا يتوب عليك فقط إن أنت أعلنت توبتك، بل وسيحبك أيضا.

نزلت الدموع لتعبر عن الندم الحقيقي الذي يشعر به ذلك الإنسان.. قال وهو يحاول أن يخفيها بين كفيه : يعلم ربي ما يملأ صدري الآن من مشاعر كلها ندم وحسرة على ما فرطتُ في حق ربي ونفسي وعائلتي!

ثم نظر إلى عينيّ شهاب وهو يقول : إن لي ابنة في عمرك تقريباً.. نعم المفترض انها الآن تمارس عملها كطبيبة.. لم تزرني منذ أشهر عدة!

أردف وهو يختنق بعبرته : انا لا الومها ابداً.. فلقد كنتُ قاسي القلب معها ومع والدتها رحمها الله.. حقها إن لم تشعر تجاهي بأي محبة لأني لم امنحها الحنان المطلوب.. كنتُ أتوقع أن الدنيا هي عبارة عن (أموال) فقط وبأنها هي التي تجلب السعادة للبشر، والآن بعد أن عشت الوحدة والغربة هنا في السجن عرفتُ ما معنى العائلة والسعادة الحقيقية.

قال شهاب وهو يحترق غضباً من فدوى : سامح الله ابنتك.. كان المفترض أن تأتي لزيارتك.. ادعو الله ان يثلج قلبك بلقاءها عما قريب.

(18)

لماذا يا فدوى..؟

وفي اليوم التالي التقى شهاب بفدوى في المستشفى أثناء دوامهما الرسمي ..قال بعد أن ألقى التحية :

ـ هل تعرفين ما معنى بر الوالدين؟

تفاجأت من نبرة صوته.. لقد كان مستاءاً منها جدا!!

ـ ولكن ماذا تقصد؟ لم أفهم!

ـ منذ متى لم تزوري أباكِ في السجن؟

طأطأت برأسها أرضاً وقد عرفت سبب غضبه :

ـ منذ ستة أشهر!

صاح بوجهها من غير إرادته : ماذا؟ ستة أشهر! ولكن لماذا بربك؟

ـ لقد كنتُ مشغولة، فما أن تخرجنا وانتهينا من الامتحانات وبحث التخرج حتى باشرنا الدوام كما تلاحظ!

لم يستطع الاستمرار بالكلام معها حيث كان متأثراً جداً، تركها ومضى في طريقه اما هي فبقت واقفة تنظر إليه متعجبة من موقفه هذا حتى غاب عن ناظريها.

في المساء اتصلت فدوى بسهام لتستعلم منها الخبر وكان شهاب جالساً بقرب أخته وعندما علم أنها تتحدث مع فدوى طلب منها أن تعطيه الهاتف ..أخذهُ وهو يقول : السلام عليكم!

وقبل أن تلقي فدوى تحيتها قال وهو يبدو صارماً أكثر مما توقعت هي :

ـ والدكِ مريض ويجب أن تكوني غداً عنده.. ان لم يسمحوا لكِ بزيارتهِ اتصلي بي من هناك وسأتصل بإدارة السجن ليسمحوا لك بمقابلته.. ولا تخبريهِ بأني انا من طلبت منكِ زيارته.. أرجو أن لا تأتي على ذكري أمامه نهائياً.. اتفقنا؟

لم يكن أمام فدوى الا الانصياع لأمر شهاب دون أن تعرف ما الخبر؟ ولماذا يتصرف معها هكذا؟

في الصباح اتجهت نحو السجن حيث والدها، وكما توقع شهاب.. لم يوافقوا على طلبها بمقابلة والدها لأنه لم يكن موعد الزيارات اصلاً ، اتصلت بشهاب وقام هو ـ كما وعدها ـ بالاتصال بالإدارة وبعد خمس دقائق فقط من اتصالها جاءها احد افراد الشرطة ليرافقها حيث والدها!

تفاجأت وهي ترى والدها مريض فعلاً ولا يقوى على الحركة.. ما أن رآها حتى صارت دموعه تجري من غير إرادته!

سألته فدوى وهي تمسك بيده :

- ولكن لماذا تبكي يا أبي؟

قال وهو يضم يدها إلى صدره :

- ابكي لأني أرى ربي يستجيب دعائي بكل هذه السرعة بينما أنا لا استحق منه ذلك!

- وبمَ دعوتَ الله يا أبتي؟

- لقد دعوته أن يجعلني التقي بكِ قبل موتي.

- ولكن لماذا تقول هذا الكلام.. ستتحسن صحتك عن قريب ولن اتركك.. سأذهب لأقدم طلب إلى إدارة السجن بالسماح لي كطبيبة بزيارتك باستمرار للإشراف على حالتك ومعالجتك لتقوم لنا بالسلامة.

قال وهو يمسح دموعه : لقد ارسل الله إليَّ من يعالجني، طبيب ليس كالاطباء.. انه طبيب القلوب.. (الدكتور شهاب) رعاه الله وحفظه من كل مكروه.

لم تعرف فدوى ماذا تقول؟! لقد حذرها شهاب من أن تأتي على ذكره أمام والدها.. لكن ها هو الآن يجري اسمه على لسان الوالد وهو يطلق عليه لقب (طبيب القلوب)!!

قالت وهي تحاول أن تبدو طبيعية : من هو هذا الطبيب يا أبي؟ هل تعرفهُ مسبقاً؟!

- لا يا ابنتي مع أنني كلما نظرتُ إليه خُيل اليَّ أنني اعرفه منذ زمن!

لقد صار يجبر خاطري ويساعدني على طلب التوبة بعد أن كنتُ من اليائسين.

لم تنبس فدوى ببنت شفة فلقد سرح فكرها بعيدا.. لماذا لم يطلب شهاب يدها من والدها بالرغم من كل هذه العلاقة القوية بينهما؟ هل ابدل شهاب رأيه وصار غير مقتنع بالزواج منها؟ لماذا إذن إلى الآن يلبس خاتم الخطوبة؟

****

بعد زيارة فدوى لوالدها بيوم واحد تعمد شهاب زيارته واستطلاع اخباره فوجدهُ بصحةٍ أحسن وقد عاد الدم إلى وجهه، وما أن رآه حتى بدأ يسرد له كيف استجاب الله دعائه وأرسل إليه ابنته لتزوره بعد أن تركته ما يقارب النصف عام!!

كان شهاب يستمع والفرحة تغمره بعد أن نجح بإدخال السرور على قلب هذا الرجل المسكين..

وهنا صدمهُ سؤال صدر من والد فدوى حينما قال : أراك تلبس خاتم الخطوبة.. صحيح؟

ابتسم شهاب وقد حاول أن يُخفي ارتباكه قائلاً :

- نعم يا عم.. لقد طلبتُ يد خطيبتي منذ ستة أعوام.. وأنا الآن انتظر أن يُيسر الله لي أمر زواجي منها.

- هل تعرف يا ولدي.. لو انك كنت غير مرتبط بخطيبتك تلك لطلبتُ منك أن تخطب ابنتي على سُنّة الله ورسوله.. لأنني لا أجد أفضل منك رجلاً غيوراً وفاضلاً حتى يكون زوجاً لابنتي الوحيدة!

لم يتكلم شهاب وبقى صامتاً منتظراً أن يسمع المزيد!

اكمل الرجل المثقل بالهموم كلامه قائلاً : لقد ظلمتها حينما ارتكبتُ جريمتي تلك ولم افكر بأنها ستبقى وحيدة إن انا دخلتُ السجن!

قال شهاب : حتماً أن الله سبحانه كان معها ولم يتركها.

قال الرجل وقد بانت ابتسامة على شفتيه :

- نعم فعلاً وكما تفضلت يا دكتور.. عندما زارتني يوم أمس رأيتُ النور في وجهها، لقد بدى ذلك الوجه البريء خالياً من المكياج، كما أنها كانت ترتدي العباءة بشكل رائع.. تذكرتُ حينها والدتها رحمها الله.. إنها تشببهها كثيراً ليس في الشكل فقط بل حتى في الأخلاق والالتزام الديني.. لقد كان الله معها وجعلها تبصر طريق النور بفضله ورحمته.

أردف قائلاً وهو يلاحظ الصمت المطبق لشهاب :

- انا ايضاً اريد ان أبصر طريق النور والهداية.. فهلّا ساعدتني على ذلك يا ولدي؟

قال شهاب وهو يُمسِك بيده : سأكون عند حسن ظنك يا عم.. سل عما بدى لك.. وسوف لن أقصر بأي شيء اعرفه.

- جزاك الله خيراً يا ولدي.. لقد أخبرتُ ابنتي عنك يوم أمس وقلتُ لها بأنك (طبيب القلوب) بجدارة لأن كلماتك فيها البلسم لقلوبنا قبل أجسامنا!

قال شهاب وقد اخرج المنديل من جيبه وصار يمسح العرق عن وجهه : لقد أخجلتم تواضعي يا عم.. ادعو الله ان اكون عند حسن ظنكم بي .

تحدث شهاب مع نفسه : هذه فرصة مناسبة لأفتتح معه موضوع الخطبة..

تردد قليلا وهو ما يزال مخاطباً لنفسه : لكنه محتاج إلى نصائحي الآن.. وإن أنا فتحت الموضوع معه فقد ينشغل بأمر الخطبة ويترك أمر إصلاح نفسه! بل قد يتغير ناحيتي ويعتبر تقربي منه لمصلحة شخصية.. مما يؤثر سلباً على رحلة هدايته!

قطع سلسلة أفكاره صوت ذلك السجين الغارق في ذنوبه :

- اسمح لي يا ولدي ان آخذ من وقتك دقائق معدودة.. لأسمع منك بعض النصائح.. لقد قضيت عمري بالابتعاد عن الله تعالى فماذا افعل حتى اقترب منه سبحانه وأعوض ما فات من عمري ؟

أجابه شهاب :

- أن مجرد استشعارك للندم والعزم على التوبة فهذا يجعلك في قافلة التائبين بإذن الله بشرط أن لا تعود إلى تلك الذنوب السابقة.. ان الانسان يا عم يجب أن يكون دائماً في حالة من محاسبة النفس حتى لا يبتعد كثيراً عن درب الله.. يقول أحد الحكماء :

(ينبغي أن يكون لتقدمنا في العمر علاقة طردية لتقدمنا في علاقتنا مع الله .. وإلا فما فائدة العيش ؟ وما معنى الحياة ؟)

وتذكر يا عم.. ان اهل البيت عليهم السلام يعتبرون الله (صاحبهم) فلذلك يناجيه المعصوم بالقول "..ويا صاحبي في شدّتي"!

ومع ازدحام الشدائد وتفاقم المتاعب، سترى أنك فاقد لتلك الأمور التي كنت تحسبها ستسندك، وترى بعين القلب أنْ ليس لديك إلا ثقتك وإيمانك بالله ، هو الصاحب الذي لا يخذل، كلما كانت مصاحبتك له أعمق وأصدق، كلما تجّلت تلك الصحبة في سكينةٍ تغمرك في وقت الشدّة.

وإن كنت تريد انيساً وصاحباً من البشر ..

فلتعلم أن هناك شخصاً غيرك مسجون في هذا العالم الفسيح!! إنه يعيش وحيداً غريباً طريداً.. فعندما تشعر بالغربة تذكر غربته!

إن كُنتَ وحيداً لاصديقَ لك .. فلاتقُل إني غريبٌ ، وحيد ..

لاتحزن إن هَجرك صَديقٌ أو قريب ..

فقط أغمض عينيك ..

ضَع يدك على صدرك .. وقل من أعماق قلبك" يا صاحب الزمان"

وسترى تأثير هذه العبارة.

قلوب (19)

وداعاً لسنوات الشقاء ..

في إحدى زيارات شهاب للسجن سأله والد فدوى قائلاً :

- هل يستجيب الله تعالى دعاء التائبين حديثاً؟

ابتسم شهاب وهو يقول : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ) هذا هو كلام الله في كتابه الكريم.. يقول اذا سألك عبادي - ولم يحدد - فالآية تشمل العباد جميعهم دون استثناء!!

قال وقد دمعت عيناه : سأدعوه أن يُفرِّج عني وعن كل السجناء هنا.. لقد أتعبني الفراق يا ولدي.. وأنا متلهف جداً للعيش مع ابنتي الحبيبة في آخر سنيّ عمري.. واطلب منك يا دكتور أن تدعو لي أيضاً في صلاتك ومناجاتك أن يشملني الله بعفوه ومغفرته، وأن يتنازل أقاربي عن قضية القتل بعد كل هذه السنوات من العقوبة القاسية.

- سأدعو الله لك من كل قلبي بأن يفرج عنك وعن كل مهموم، وانت أيضاً يا عم عندما تدعو تذكر :

(إن كان لك حاجة وليس لك قدرة ، فإن لك رب له قدرة

وليس له حاجة).

وتذكر أيضاً هذه الكلمات التي صدرت من أحد المصلحين وهو يقول :

(في احيانٍ كثيرة تجد شدّة البلاءات المتراكمة نعمة وليست بلاء ! لأنك ترى آثارها الجميلة ، تراها اختراق للحجب التي بينك وبين السماء فتبتهج بحجم شدة هذه البلاءات لانها فتحت لك طرقاً نحو الغاية التي خلقت لأجلها ، فلا تفكر كثيراً في بلائك بل فكر كيف تستغل هذا البلاء للوصول الى الغاية الأسمى.. ومن هذا المنطلق سيتلاشى البلاء تدريجياً وينقضي ان شاء الله.)

وتذكر إذا تأخر استجابة دعائك لبعض الوقت :

إن بعض الناس الذين يحبهم الله ، لكي يوفقهم و يزيد من توجههم إليه ، يؤجل استجابة دعاءهم ، حتى يدعونه أكثر!

وأخيراً تقبل مني هذه النصيحة والحكمة الرائعة :

إذا لم تجد عدلاً في محكمة الدنيا ، فارفع ملفك لمحكمة الآخرة فان الشهود ملائكة والدعوى محفوظة والقاضي أحكم الحاكمين.

كانت لهذه الكلمات صداها الأكبر في قلب ذلك السجين التائب الذي اشتاق إلى حياة الحرية والعيش بما بقي له من عمر مع ابنته الوحيدة..

بدأ والد فدوى حياة جديدة في السجن تملؤها التفاؤل والأمل، وكان يكثر من قراءة القرآن ويقضي ما فاته من صلوات في السنين الماضية خاصة بعد أن عادت إليه صحته بفضل العلاجات التي كان يصفها له الدكتور شهاب.

وكان يصلي صلاة الليل كما علمه الدكتور شهاب ثم يبقى يدعو لنفسه لعل الله يغفر له ذنوبه ويشفع له في قضاء حاجته وهي الخروج من السجن.

بعد ثلاثة اشهر فقط جاءه خبر الإفراج .. فلقد تنازل أبناء عمومته عن الدعوة وهم الآن يطلبون له الحرية!

****

مضت أعوام عدة على خروج والد فدوى من السجن، وها هي فدوى قد عادت للعيش مع والدها ومُربيتها ولا ينقص سعادتها الآن غير خبر خطوبتها من شهاب!

كان الأب يشعر بأن ابنته تعاني أمراً ما.. ولكن لم يشأ أن يجبرها على البوح، قال لها مرة :

ـ لقد افتتح الدكتور شهاب عيادة خاصة به وأريد أن أذهب لزيارته.. ما رأيكِ أن ترافقينني لرؤيته..؟

ـ ماذا!! أنا؟

ـ ولِمَ لا؟ اريد ان اعرفكِ عليه.. انه رجل فريد من نوعه يا ابنتي.

صمتت فدوى ولم تجد ما تتعذر به، قال لها والدها وهو يحاول اقناعها بمرافقته :

ـ كما سينفعنا كثيراً في مسألة افتتاح عيادة لكِ عن قريب.. سنعرف منه ما هي كلفة افتتاح العيادة ، وخاصة أنه في نفس اختصاصك ..!

أذعنت فدوى لطلب والدها ورافقته إلى عيادة شهاب وهي لا تعرف ما الذي يمكنه أن يجري هناك!

وما أن وصلا العيادة حتى شاهدا لافتة كبيرة مُعلقة فوق الباب مكتوب عليها (للفقراء مجاناً.. لعلَّهم يشفعوا لي عند الله).

لم يتعجب أياً منهما فهذا ما كانا يتوقعانه منه.. أوليس هو الأمير.. طبيب القلوب؟!

وفي العيادة ارتبك شهاب وهو يرى فدوى مع والدها لكنه حاول أن يبدو طبيعياً.. رحب بهما وصار يسأل العم عن صحته وأمور حياته.

أجابه وقد ارتسمت على ثغرهِ ابتسامة رضا :

ـ لقد كانت لكلماتك ونصائحك الأثر الكبير في الإفراج عني!

قال شهاب وهو يتمتم بخجل : لم افعل اي شيء يذكر.. كل ما انت فيه هو من فضل الله يا عم.

وهنا طرق السكرتير الباب وهو يقول : أن اخواتك في الانتظار يا دكتور.. هل اسمح لهن بالدخول؟

قال شهاب وقد اتسعت حدقتا عينيه : لا.. عندي ضيوف الآن.

قال والد فدوى وهو يشير إلى ابنته بالقيام : نحن نستأذن يا دكتور.. لا نريد أن نأخذ من وقتك أكثر..وسنزورك في وقت لاحق .. يمكنك استقبال اخواتك.

قال شهاب وهو يشعر بالإحراج قليلاً : أنهن متشوقات لرؤية العيادة..!

ضحك والد فدوى وهو يقول : هذا من حقهن.. يُردنَ أن يفخرنَ بأخيهنَّ الطبيب!

خرجت فدوى مع والدها وما أن رأتها سهام حتى أسرعت نحوها وهي تردد بلهفة : فدوى حبيبتي.. لقد سبقتِنا في رؤية العيادة!

لم تلتفت سهام إلى وجود والد فدوى معها ولم تلتفت إلى ارتباك فدوى فأكملت حديثها بالقول : لكن كيف جئتِ وحدكِ.. أين هي الخالة سمية؟

قال الوالد الذي أصابته الدهشة وهو يخاطب ابنته : هل هذه الفتاة شقيقة الدكتور شهاب؟ أتعرفين عائلة الدكتور شهاب يا فدوى؟

قالت ختام وقد قامت لإلقاء التحية على فدوى : وكيف لا تعرفه يا عم؟ انه خطيبها!

لم تشعر فدوى ما الذي حصل.. لقد صارت الدنيا تدور بها ثم سقطت أرضاً..!!

صارت الأخوات الثلاثة يصرخن بصوت واحد : شهاب.. فدوى سقطت مغماً عليها.. أسرع!!

كان الأب ينظر وهو لا يعرف ما الذي يجري؟ ما علاقة هذا الطبيب بابنته؟ ولماذا تدّعي تلك الفتاة بأن فدوى خطيبته؟ هل يمكن انه لم يسمعها جيداً!؟

طلب شهاب من والدها إدخالها إلى العيادة ..وهناك رش على وجهها كوباً من الماء مع بعض الصفعات الخفيفة التي ضربت بها سهام وجه فدوى.. فاستيقظت.. وما أن جاءت عيناها بعيني شهاب حتى صارت دموعها تجري انهاراً وهي تخاطبه بالقول :

- شهاب! هذا ابي أمامك.. إما أن تطلب يدي منه وإما أن تخلع خاتم الخطوبة الآن لينتهي كل شيء.. فما عدت اتحمل كل هذه الفوضى في حياتي!

قال شهاب وهو يلاحظ نظرات والدها له :

- إن كان الأمر كذلك فاتركونا انا والعم لوحدنا رجاءا..!

قامت فدوى بمساعدة سهام وأختيها ليخرجن جميعاً من الغرفة.. بينما بقى والدها مع شهاب ينتظر منه الإفصاح عن كل ما يجري!

قال شهاب وهو يشير للعم بالجلوس :

- استميحك عذراً يا عمي.. لكني كنت مضطراً لإخفاء الأمر عليك كل هذه المدة!

انا هو ذلك الشاب الذي جاءك إلى السجن منذ سنوات لخطبة الآنسة فدوى.. أتذكر؟

قال والدها وهو غير مُصدّق : ماذا؟ انت هو نفسك ذلك الشخص؟!!

- نعم يا عمي.. اقسم بالله على ذلك!

خلع شهاب النظارة الطبية وهو يقول : انظر إليّ جيداً..لعلك تذكرني ..لم اكن ارتدي نظارتي هذه؟!

- نعم فعلاً.. انهُ انت!

ثم أردف وهو يشعر بالخجل : اعذرني يا دكتور.. لقد خانتني الذاكرة!!

اكمل شهاب وهو يقول بأدب : انا من يجب أن يعتذر لقد اخفيت عنك الأمر كل هذه المدة.. ويشهد الله إنني بعد التخرج من الكلية مباشرة زرتك في السجن خصيصاً لعلك ترضى هذه المرة بأن تزوجني ابنتك.. لكنني وجدتك بحالة صحية سيئة جداً فقررت أن اؤجل الحديث بالموضوع!

- ولكن يا ولدي.. مرت أعوام ونحن نلتقي .. في السجن وخارج السجن ونتواصل هاتفياً أيضاً.. فلماذا لم تخبرني بمقصدك؟

- لا أعلم بالضبط سبب تخوفي .. أو بالاحرى أظن أنني كنت أخشى إن عرفتني ستتغير نظرتك عني.. فلقد جمعتني بك علاقة طيبة من المحبة في الله و..

لم يدعهُ يُكمل فقام من مكانه وقبَّلَ جبهته وهو يقول :

- انت أشرف انسان عرفته في حياتي يا دكتور.. لقد ضحيت بسعادتك من أجل هدايتي إلى طريق الهدى والصواب .

قال شهاب وهو يشعر بالخجل : تمنيت أن أعود إلى خطبتها بعد خروجك من السجن مباشرة لكن حالتي المادية كانت صعبة جدا، فأنا مسؤول عن أخواتي الثلاثة وعن مسؤولية بيت بالكامل.. ففكرت ان أؤجل فكرة الخطبة والزواج إلى ما بعد افتتاحي للعيادة لعلها تعينني مادياً في تحمل مسؤولية الزواج وتكلفته.

قال والد فدوى بدهشة : وعندما كنت أسألك عن أمر خطوبتك كنت تتهرب من الإجابة وتقول بأنك تنتظر التسهيل من الله..!

ها هو الله يُسَهّل عليك يا ولدي بعد كل هذا الصبر والانتظار، لقد جاء بنا اليوم وجاء بأخواتك في نفس الوقت حتى اعرف انا بالحقيقة التي أخفيتها عني كل هذه السنوات!

قام من مكانه وفتح الباب لينادي على ابنته وهو يقول :

- تعالي إلى هنا يا حبيبتي.. ما اسعدني وصهري هو الدكتور شهاب..!

وما أن سمعت سهام كلمة (صهري) من والد فدوى حتى حضنت فدوى وهي تبكي وتقول : وأخيراً حصلت الموافقة.. الحمد لله.. الحمد لله.. قريباً ستكونين زوجة أخي!

(20)

ما كان لله ينمو ..

قرر كل من شهاب وفدوى أن يكون عقد القِران عند ضريح الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قال لخطيبته وهما يتجهان مع والدها إلى النجف الاشرف : سأبحث عن ذلك الشيخ الوقور الذي قابلته في الصحن العلوي الشريف منذ سنوات.. أتمنى أن أجده بصحة جيدة..

سأشكره على كل ما قدمه لي من عون في وقت كانت الدنيا قد اسودَّت في عيني..!

وصلوا إلى الضريح المقدس وبعد أن أكملوا الزيارة صار شهاب يبحث عن الشيخ، وبينما هو كذلك طلب والد فدوى من ابنته أن تقص عليه قصة ذلك الشيخ؟

حكت فدوى لوالدها عن موقف شهاب حينما رفض هو خطبته لها وكيف ظل حائراً ماذا يفعل بعد أن أخبر الدكتور شادي بأنها خطيبته!!

جاء إلى هذا المكان الطاهر وصار يدعو الله بحق صاحب القبر الشريف أن يبرد لوعة قلبه، فأرسل الله له ذلك الشيخ الصالح الذي علمه ماذا يفعل وكيف يتصرف.

قالت فدوى وهي تبتسم : هل تعلم يا ابي.. ان شهاب طوال هذه الفترة، لم ينظر إلى عيني مباشرة، كان غاضاً للبصر ، ولم يكن يتكلم بغير الأمور الدينية والنصائح الروحانية.. لم يسمح لي يوما أن اتصل به، ولم يدعوني يوماً للتنزه بمفردنا رغم أننا كنا نلبس خاتمَي الخطوبة!!

انظر يا أبي.. شهاب والشيخ.. أنهما هناك.. اعتقد انه قد وجده!

عقد الشيخ القِران لهما وبارك لهما هذا الحب الطاهر والذي هو امتداد لحب الله في قلبيهما.

قال لها والدها بعد أن تم العقد : شهاب هو زوجكِ الآن.. لقد سلَّمتُ الأمانةَ إليه..!

قبّلت فدوى يد والدها وهي تقول : انت الخير والبركة يا ابتي!

قبّل شهاب عمه في جبينه وهو يتمتم بكلمات الشكر والامتنان.

أصرَّ والد فدوى أن يقضيا ذلك اليوم معاً وعاد هو بمفرده إلى مدينتهم.. بينما بقيَ شهاب مع خطيبته في النجف الأشرف حيث أخذها إلى مسجدي السهلة والكوفة المقدسين، ثم تناولا عشائهما في احد مطاعم المدينة المقدسة.. وفي طريق العودة اثناء جلوسهما في السيارة قالت فدوى لخطيبها :

- العبارة التي كتبتها على باب العيادة.. سأكتب مثلها على باب عيادتي.. (للفقراء مجاناً).

قال شهاب مبتسماً:

- يجب أن تلحقي هذه العبارة بعبارة أخرى..

قالت فدوى :

- نعم نعم تذكرت (.. لعلهم يشفعوا لي عند الله) ولكن لماذا يجب أن الحقها بهذه العبارة!

أجابها :

- حتى لا نكون نحن المتفضلين على الفقراء .. بل سيكونوا هم اصحاب الفضل علينا لأنهم سيشفعوا لنا عند الله، وبذلك سوف لا يكونوا مُحرجين أثناء دخولهم العيادة مجاناً!!

قالت فدوى وهي تطيل النظر إلى وجهه :

- ما اصدق مشاعرك وما انبلها.. لقد صدق والدي حينما وصفك بأنك.. (طبيب القلوب).

قال وهو ينظر من نافذة السيارة إلى الأفق البعيد :

- هذا اقل ما يمكننا أن نقدمه لمولانا صاحب الزمان.. هل تذكرين رسالتي التي أخبرتك بها عن الفضل العظيم الذي يتأتى من خدمتنا لإمام زماننا..؟

- نعم.. نعم اذكر.. حينها تمنيت أن أكون من خدام الإمام المهدي أرواحنا فداه.

- الفرصة الآن سانحة لنا يا حبيبتي..

سنقدم من موقع عملنا - كأطباء - خدمتنا لمولانا صاحب الزمان عن طريق مساعدتنا للفقراء والمحتاجين في هذه الظروف الصعبة التي تعيشها البلاد .. وأنا على يقين بأن عملنا هذا سيدخل السرور والفرحة على قلبه الشريف .. وما أجمل أن نرسم الابتسامة على شفتيه بأعمالنا الخيرية تلك؟

إن مشروعي أكبر من العيادة يا فدوى .. أتمنى أن أعمل مشفى كامل بإسم.. (مشفى خُدّام الإمام المهدي) أرواحنا فداه .. لنقدم فيه كافة الاحتياجات الطبية للفقراء والمحتاجين بدون اي مقابل.. أتمنى أن تكون فعلاً مشفى خيري ينفع الناس في هذه الحياة الدنيا وينفعنا نحن في تلك الحياة الآخرة!

قالت فدوى وهي تشدُّ على يديه : وانا معك، يدي بيدك.. سنعمل من أجل تحقيق هذا الحلم.. وسيوفقنا الله ما دامت غايتنا وجهه الكريم (ما كان لله ينمو).

قال وهو يفتخر بمهنته الانسانية العظيمة :

- أتدرين ؟ لقد وضعت سجل خاص لأكتب فيه أسماء جميع المرضى الذين يزورونني في العيادة وكذلك مرضاي في المشفى الحكومي، اسجل أسمائهم جميعاً في هذا السجل لأدعو لهم بالصحة والعافية في صلاة الليل..حيث قرأت في إحدى المرات عن طبيب كان في قمة النجاح، بحيث اشتهر بين الناس بعلاجاته النافعة وزيادة حالات الشفاء على يديه بشكل عجيب.. وحينما أجرى معه أحد الصحفيين لقاءاً

وسأله عن سبب كل هذا النجاح قال : أنا أسجل أسماء المرضى الذين اقابلهم كل يوم في سجل خاص لأدعو لهم في صلاة الليل واحداً واحداً.. وأظن أن تأثير دعائي لهم في تلك الصلاة أقوى من تأثير الأدوية التي أصفها لهم!!

قالت فدوى مبهورة : ما أروعها من فكرة!

ثم أردفت وهي تستعيد بعضا من ذكريات الماضي :

ـ على ذكر صلاة الليل.. لقد رأيتُ فيك رؤيا جميلة سأقصها لك الآن رغم أنها قد مرت عليها سنوات عديدة!!

ـ ماذا رأيتِ؟ خيراً ان شاء الله!

بدأت فدوى تقص عليه رؤياها وهو يستمع بكل اهتمام.. قالت بعد أن أكملت : كنتَ انتَ الأمير الذي أراه في أحلامي دائما ولم أكن اعرفه! لكني في هذه الرؤيا تأكدت من صوته .. انه أنت !!

وايقنتُ أكثر عندما ارسلتَ لي رسالة في نفس الليلة بعد تلك الرؤيا مباشرة تشجعني فيها على أداء صلاة الليل! فهل هناك شك بعد الآن أن ذلك الأمير هو شخص غيرك؟

قال شهاب وهو يبتسم : لكني في الرؤيا أخبرتكِ أنني لست سوى عبداً لله؟! ألم تخبريني بذلك قبل قليل؟

أجابت فدوى بسرعة :

ـ نعم نعم.. قلتُ ذلك وهذا فعلاً ما قلته انت في الرؤيا!

قال لها وهو يربت على يديها : إذاً اتركي قصة الأمير.. فأنا عبد الله!

قالت وهي تحدُّ النظر إليه : ولكن ما الضير إن كنت عبداً لله وأميراً في نفس الوقت؟!

قال لها بكل ثقة : بالنسبة لوصف والدك لي بأنني طبيب القلوب.. فلا طبيب للقلوب غير الله تعالى.. وإنما الأطباء وكذلك الحكماء ما هم إلا وسيلة يرسلها الله لبقية البشر لشفاء عللهم وأوجاعهم الجسمية منها أو الروحية..وأما قولك بأنني أمير فلا يوجد أمير في هذا الوقت غير (أمير الزمان) وصاحب العصر.. مهدي آل محمد أرواحنا فداه..

رددت بعده : أرواحنا فداه.

ثم أردفت وهي تحاول إقناعه بشتى الطرق : لكن ملابسك في ذلك الحلم كانت توحي لي بأنك (أمير)..! وحتى لا ننسى هذه الرؤيا الرائعة سنطلق على مولودنا الأول اسم " أمير " .. ما رأيك يا نور عيني ؟

قال لها وقد حاول أن يكون صوته حاداً بعض الشيء :

- لا.. بل سيكون اسمه عبد الله!

سحبت يدها من يده وأدارت بوجهها نحو نافذة السيارة دون أن تناقشه ، فقال وهو يضحك من موقفها:

- سيكون مولودنا الاول" أمير " .. والثاني " عبد الله " .. هل رضيتي الآن؟

عادت الابتسامة إلى وجهها الملائكي وهي تقول : رضيت!

*** النهاية ***